النظام العالمي الجديد
وتحديات الامن القومي العربي

صخر حبش (أبو نزار)

النظام العالمي الجديد
وتحديات الامن القومي العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

دخل جورج بوش حملة الانتخابات الامريكية معتمدا على ما انجزه في الساحة الخارجية من انتصارات تبشر ببزوغ عصر الهيمنة الامريكية المطلق. فقد انتهى على يديه الاتحاد السوفيتي، القوة العظمى الثانية، وبقيت امريكا السيد المطلق للعالم. ورغم كل ذلك فقد صوت الشعب الامريكي لصالح منافسه كلينتون، الذي دخل حملة الانتخابات تحت شعار التغيير، والاصلاحات الاقتصادية الداخلية.

كان ابرز شعارات بوش في حملته الانتخابية هو تعبير "النظام العالمي الجديد". وكانت المرة الاولى التي استخدم فيها بوش هذا الشعار هي مناسبة الابتهاج بتفكك النظام الشيوعي في اوروبا الشرقية. وكان ذلك في خطاب له امام الكونغرس في 12 أيلول-سبتمبر 1990، حيث توقع في خطابه ان نظاما عالميا جديدا سوف يبدأ في التكوين مباشرة بعد الانتهاء من ازمة الخليج، وقال بعد ان اشار إلى اربعة اهداف لامريكا في الخليج، تتلخص بانسحاب العراق، واعادة حكومة الكويت، وضمان امن واستقرار الخليج، وحماية المواطنين الامريكان: (اننا نشهد اليوم لحظة فريدة ورائعة، ان الازمة في الخليج الفارسي التي اصبحت خطيرة كما هي، توفر فرصة نادرة للتحرك مقدما نحو فترة تاريخية للتعاون، ومن هذه الاوقات المضطربة يمكن ان نبرز هدفنا الخامس.. "نظام عالمي جديد": عصر جديد.. متحرر من تهديد الرعب، واقوى في سعيه نحو العدالة.. واكثر امنا في بحثه عن السلام. عصر تستطيع فيه دول العالم شرقا وغربا.. شمالا وجنوبا ان تزدهر وتعيش في تآلف) (1).

ولم تكن ازمة الخليج مجرد فرصة نادرة لتكوين النظام العالمي الجديد، ولكنها كانت ضرورة حتمية لبوش لتحقيق هدفه في رسم النظام العالمي على الشكل الذي انطبع في ذهنه ومخيلته، والتي تتمثل بأن عصر ما بعد الحرب الباردة، التي انتصرت فيها الرأسمالية على الشيوعية بشكل حاسم.. تتطلب ركيزتين اساسيتين:

الاولى: انفراد امريكا بقيادة العالم.

الثانية: التمسك بالقوة العسكرية والاستراتيجية اللازمة للمحافظة على هذا التفرد.

وجاءت المناسبة الثانية في خطابه امام الكونغرس في السادس من آذار-مارس 1991، بعد انتهاء حرب الخليج، حيث قال.. (وحتى الآن.. كان العالم الذي نعرفه عالما منقسما.. عالم الاسلاك الشائكة وجدران الاسمنت. وعالم الصراع والحرب الباردة. والان نستطيع ان نرى عالما جديدا آخذا في التبلور، عالما يمتاز باحتمال حقيقي جدا لتحقيق "نظام عالمي جديد" كما قال ونستون تشرشل: "نحمي فيه مبادئ العدل وانصاف الضعيف من القوي"، عالماً تتأهب فيه الامم المتحدة بعد ان تحررت من جمود الحرب الباردة لتحقيق الرؤيا التاريخية لمؤسسيها، عالماً تجد فيه الحرية واحترام حقوق الانسان ملاذاً لدى جميع الامم" (2).

لقد شاهدنا كيف وظف بوش الامم المتحدة لاغراض نظامه العالمي الجديد. فقد استطاع بعد تكريس هيمنته المطلقة على مجلس الامن ان يوظفه بالشكل الذي يريد. وحينما يريد كما حصل في ازمة الخليج. ولكنه استبعده بشكل كامل من عملية السلام التي ابتدأت في مدريد، والتي تستند اساسا على قراري مجلس الامن 242 و.338 وكان استبعاد دور مجلس الامن من عملية السلام احد النقاط التي ثبتتها الادارة الامريكية في رسالتها للوفد الفلسطيني، تسدّ بها الطريق امام دعوة مجلس الا من، وتؤكد على ان (الولايات المتحدة لا تدعم خلال الاستمرار الفاعل للمفاوضات اية عملية موازية منافسة في مجلس الامن الدولي (3). ولكنها لم تتورع في استخدام كل اساليب الترغيب والترهيب لاستصدار قرار جديد من الجمعية العمومية للامم المتحدة لالغاء القرار الاممي الذي يصم الصهيونية بالعنصرية. لقد ركز بوش في خطابه في الامم المتحدة في 22 أيلول-سبتمبر عام 1991 على موضوعين اساسيين:

- **الغاء قرار "الصهيونية صنو العنصرية".**
- **"النظام العالمي الجديد".**

حيث جاء في خطابه حول الموضوع الاول ما نصه: "ان قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم 2279، ما يسمى قرار "الصهيونية صنو العنصرية" يسخر من هذا التعهد "يقصد تعهد ميثاق الا مم المتحدة بممارسة التسامح والعيش في حسن الجوار" والمبادئ التي قامت على اساسها الامم المتحدة، وانني ادعو الآن لالغائه. ان الصهيونية ليست سياسة. انها الفكرة التي ادت إلى اقامة وطن للشعب اليهودي. دولة اسرائيل. ومساواة الصهيونية بخطيئة العنصرية التي لا يمكن تحملها، انما هو تشويه للتاريخ، ونسيان للمعاناة القاسية التي عاناها اليهود في الحرب العالمية الثانية، وما عانوه في الواقع عبر التاريخ. ان مساواة الصهيونية بالعنصرية هو رفض لاسرائيل نفسها وحتى من الدول الاعضاء في الامم المتحدة. ان هذه الهيئة لا يمكنها ان تدعي انها تسعى إلى تحقيق السلام، وتتحدى في نفس الوقت حق اسرائيل في الحياة. وستعزز الا مم المتحدة مصداقيتها وتخدم قضية السلام بالغائها هذا القرار بدون قيد او شرطا (4).

إن اضفاء الشرعية الدولية على الحركة الصهيونية، باعتبارها حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي، والتي ادت كما يقول بوش، إلى اقامة وطن للشعب اليهودي "ودولة اسرائيل"، هو من اخطر نذائر النظام العالمي الجديد تهديدا للامن القومي العربي.. فهو لا يقف عند حد تبرئة الصهيونية من كل جرائمها ضد شعبنا الفلسطيني وامننا العربي. وانما يتجاوز ذلك إلى ادانة حركة التحرير الوطني الفلسطيني وحركة التحرير الوطني العربية، منذ تصديها للغزو الصهيوني، ويمهد لوصمهما بالارهاب. وهو ما يتركز عليه الآن الموقف الامريكي من منظمة التحرير الفلسطينية، ومن التخطيط السافر لتصفيتها.

لقد سقط بوش في الانتخابات الامريكية. ولكن هذا لا يعني بالضرورة سقوط مشروعه للنظام العالمي الجديد بشكل كامل... ان مجمل التغيرات التي اصابت العالم بأسره.

تقتضي انبثاق نظام عالمي جديد. وان مواصفات هذا النظام لم تتبلور في عهد بوش نفسه. لهذا فإن شخصية الرئيس المنتخب بيل كلينتون وطبيعته وافكاره المنطلقة من عقيدة حزبه الديمقراطي، سيكون لها اثرا في صياغة النظام العالمي الجديد.

إن توجهات الرئيس الامريكي المنتخب نحو التصدي للمشاكل الاقتصادية التي تعاني منها الولايات المتحدة، والتي تركزت حسب وعوده للناخبين في تأمين الوظائف ومجالات العمل، والتأمين الصحي وتقليص الضرائب عن الطبقة الوسطى وتقليص العجز في الميزانية والديون وتطوير التعليم. كل هذه ستدفعه لتقليص موازنات وزارة الدفاع ونفقات سباق التسلح، حيث لا منافس له في هذا المجال. ولكن باب الاحتمالات بالنسبة للسياسة الخارجية الامريكية يظل مفتوحا. ولهذا، فإن خيارات تحقيق الامن القومي العربي، تظل مفتوحة ايضا حسب التطورات والتغيرات، والتي ستتحكم في صياغة النظام العالمي الجديد.

وتهدف هذه الورقة إلى تحديد طبيعة العلاقة التي سادت منطقتنا مع النظام العالمي المعاصر، منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى، وحتى نهاية الحرب الباردة.. وتحديد طبيعة المتغيرات التي كانت تشكل مفاصل الانتقال من نظام عالمي قديم إلى نظام عالمي جديد. كما وسترصد طبيعة ومصادر التحديات، التي تواجه الامن القومي العربي الراهن، وخيارات المواجهة الضرورية التي تفرضها هيكلية النظام العالمي الجديد، وذلك حسب هيكل التسلسل الآتي:

أولاً: قوانين الاستعمار والاطماع الاستعمارية والامبريالية في الوطن العربي.

ثانياً: النظام العالمي وتطوره حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

ثالثاً: المتغيرات التي احدثت التغيير.

رابعاً: النظام العالمي الجديد.

خامساً: الامن القومي العربي ومصادر التهديد وخيارات المواجهة.

أولاً: قوانين الاستعمار

والاطماع الاستعمارية والامبريالية في الوطن العربي

يعيش وطننا العربي تحت وطأة قوانين الاستعمار الحديث، قوانين الامبريالية التي بدأت مع فجر الثورة الصناعية. تلك الثورة التي جاءت حاملة معها بوادر عالم جديد، مليء بالكشوفات العلمية، وبمحاولات العلماء تسخير الطبيعة، وما تحتويه من اجل مصلحة الانسان. فقد تحطمت على يدها قيود الرق والاقطاع، وما يمثلانه من امتهان لكرامة الانسان. وتبعيته التي جعلته جزءا من ممتلكات النبلاء والاقطاعيين. ومع اكتشاف الآلة وتطورها وتعدد مصادر الطاقة، برز نوع من الانتاج جديد. كما برزت علاقات للانتاج جديدة. فلم يعد العبيد اقناناً أو مرابعين في مزارع النبلاء، وانما تفتحت امامهم آفاق جديدة مغمورة باضواء الاستقلال الذاتي وبالحرية الفردية. فتعلموا انتاج السلع بانواعها المختلفة بعيدا عن صعوبات الحرث والبذر والري والحصاد، الذي لا ينالهم منه غير الطوى والجوى، ولقمة تقف في حلوقهم لغياب المياه. ومع تطور الآلة والطاقة برز تطور في الانتاج من ناحيتي النوع والكم. وبرزت بالتالي آفاق انتاج سلع من نوع جديد، سلع ضرورية للتصدير، سلع تبادلية لاسواق استهلاكية، وبدأت معادلة الضروريات تفرض نفسها.

لا يمكن لصناعة ان تزدهر بدون اسواق لتصريف البضائع المنتجة.

لا يمكن لصناعة ان تزدهر بدون توفر المواد الخام الضرورية لانتاجها.

لا يمكن لصناعة ان تزدهر بدون الايدي العاملة النشيطة والمبادرة لانتاجها.

ولا يمكن لصناعة ان تزدهر بدون طرق تجارية آمنة، تضمن وصول البضائع إلى الاسواق، ووصول المواد الخام إلى المصانع.

وكان لا بد من عصر جديد، لكي يفتح ذراعيه لاحتضان عصر الثورة الصناعية. واطل الاستعمار برأسه مجيبا.. أنا لها. وكان لا بد من قوانين تحكم طبيعة المسيرة الاستعمارية، وتبرر وجودها. وأرسى عصر الاستعمار قوانينه الخاصة. وكان لا بد له بادئ ذي بدء ان يضع الاساس الاخلاقي لتبرير جرائمه، فكان قانون التفوق أول قوانين الاستعمار (5). وتبعته بقية القوانين:

1. قانون التفوق

تحت شعرا خادع براق اطلق عليه (عبء الرجل الابيض)، كرست العنصرية قانونها الذي يسمح بتقسيم البشر وتصنيفهم إلى سادة وعبيد. وأن الجنس الابيض الذي يشكل السادة، حمّله الله عبء الرسالة الحضارية، وانه مطلوب منه التضحية من اجل تحقيق هذه الرسالة. هكذا برر الرجل الابيض

جرائمه ضد شعب الهنود الحمر في امريكا، وضد شعوب آسيا وافريقيا.

ولم يقتصر التمييز ومقياس التفوق على العرق واللون، وانما استطرد ليشمل خصائص اللغات والثقافات، مما ادى إلى تقسيم العالم قسرا وتحت شعارات علمية زائفة إلى مجتمعات متقدمة ذات ثقافات حضارية، واخرى متخلفة غير قابلة للمساهمة في مضمار الحضارة الانسانية. وعلى اساس هذا المنهج العلمي الخادع اعتبر ان من حق، بل ومن واجب المجتمعات المتحضرة، ان تنشر حضارتها في العالم، وان تزيل من امامها كل العقبات والشوائب، التي تحول دونها ودون نشر هذه الحضارة. وعلى هذا الاساس، استعرت حملة الاستيطان والتوسع الامبريالي الاستعماري في آسيا وافريقيا وامريكا..

واصبح العلم في خدمة الرجل الابيض لتبرير الامبريالية والاستيطان وتشريد السكان الاصليين، مما ادى إلى كوارث يكاد العقل لا يتصورها. ولقد بلغ الا مر إلى حد اصبح معه الاعتقاد السائد لدى الاوروبيين، الذين كانوا لا ينفكون عن تسخير العلم لاغراضهم واهوائهم، ان العناصر السوداء والصفراء والسمراء والحمراء ليست من بني الانسان. وهكذا وجد الرجل الابيض تبريرات علمية لمصادرة اراضي هذه الفئات من الناس، واضفاء الشرعية على هذه المصادرة بجرة قلم واحدة. وكان منظرو الامبريالية، يعلنون ان الامبريالية ليست غزواً لا راضي المتخلفين ومناطقهم، بل هي نظام لا زالة العناصر غير الصالحة للحياة، اي العناصر الملونة من التاريخ نفسه، وبالتالي اقيمت الوف المتعقلات هنا وهناك، لاحتجاز اعداد ضخمة من هذه العناصر (6).

هكذا اعتمد الاستعمار على قانون التفوق، الذي يقوم على اساس تصنيف الكائنات الطبيعية والبشرية بطريقة منهجية عملية، إلى صنوف متميز بعضها عن بعض. فبعضها متقدم وبعضها متخلف. وبعضها متطور وبعضها غير قابل للتطور، وبعضها له ذهنيات ولغات متفوقة، ولم يتورع من اضفاء ستار علمي منطقي، بل وانساني مزيف على جميع هذه الافكار والمفاهيم، لمحاولة اخفاء حقيقة الغزو السافر الذي تنطوي عليه. فهو في حقيقته لم يكن يحمل رسالة حضارية، وانما كان يمارس استغلالاً بشعاً يشكل التعبير الحقيقي عن القانون الثاني من قوانين الاستعمار وهو قانون المصلحة.

2. قانون المصلحة

يتداول السياسيون في هذا العصر تعبير توازن المصالح، بعد ان انهار شعار توازن القوى. وقد استطاعت الامبريالية الامريكية ان تفرض تفوقها على الاتحاد السوفيتي، وتحقق نصرا عليه بدون حرب ساخنة. مما ادى إلى تفككه. وقانون المصلحة الا ستعماري، ينطلق من انه ليس هناك لدى الدول الاستعمارية سياسة ثابتة او مبدئية. وانما هناك مصالح ثابتة، مصالح تضمن الاستغلال والنهب، بعيداً عن المثل والمبادئ. فما يخدم مصلحة الاستعمار في لحظة ما يجب التمسك به، واذا تعارض مع المصلحة بعد لحظات، فلا بأس من تركه جانباً ومحاربته.

وانطلاقاً من قانون المصلحة الاستعماري هذا، نجد ان نابليون يعطي الوعد بإنشاء دولة لليهود في فلسطين. ويدعوهم لاعادة بناء الهيكل باعتبارهم ورثة "اسرائيل" الشرعيين، وذلك في آذار عام 1799. حيث كان يحلم باقامة دولة تابعة له في فلسطين، لتشكل شوكة في حلق غريمته انجلترا، ولتصبح اداته في السيطرة على مصر وطرق المواصلات إلى الشرق.

لقد سبق وعد نابليون وعد بلفور ب 118 سنة. ويعتبر نابليون اول الصهيونيين الحديثين من غير اليهود،

كما وصفه حاييم وايزمن.

ونابليون نفسه الذي تظاهر بالاسلام في القاهرة انطلاقاً من قانون المصلحة. يعطي الوعد لليهود وهو على ابواب عكا. ولكنه وبعد ان فشلت حملته إلى مصر. وعاد إلى اوروبا وحقق فيها انتصارات باهرة. وتألق تاج الامبراطورية على رأسه. الا انه ظل يحلم بمشروعه، وخشي ان يستفيد الانجليز من فكرته ببناء دولة لليهود في فلسطين. ولكي يسد الطريق عليهم، وانطلاقاً من قانون المصلحة الاستعماري، دعا في عام 1807 إلى اجتماع (السانهدرن) وهو المجلس الكهنوتي الاعلى لليهود في اوروبا. وجعل الكهنة يتخذون قراراً، يعلنون فيه ان اليهود ينتمون إلى قوميات البلاد، التي يعيشون فيها وان اليهودية هي دينهم فقط.

وقانون المصلحة الاستعماري، يجد لغة للتفاهم فيما بين الدول الاستعمارية سلماً وحرباً. فالحروب الكبرى كانت بسبب تضارب مصالح الدول الاستعمارية الكبرى. ولكن هذه الدول تتحد جميعها في وجه اي محاولة لبروز قوة ناشئة. فكما حصل بعد هزيمة نابليون في واترلو، حيث ظهر خطر جديد يهدد الدول الاستعمارية، عند بروز نجم محمد علي وابنه ابراهيم باشا، اللذين اندفعا في خطة جريئة لتوحيد المنطقة العربية. وما ان وصلت جيوش ابراهيم باشا إلى الاناضول، حتى هبت كل اوروبا الاستعمارية لحماية الرجل المريض تركيا، من الخطر الذي شكله تحرك محمد علي. حتى فرنسا، التي كانت حليفة لمحمد علي، والتي قامت بمساعدته في تطوير جيشه، وقفت إلى جانب الدول الاستعمارية في مؤتمر لندن عام 1840، انطلاقا من قانون المصلحة الاستعماري، الذي يؤكد على المصالح المشتركة للدول الاستعمارية، التي وان كانت تتناحر فيما بينها، الا انها تتفق عند بروز عنصر غريب من شأنه، ان يضعضع مصالح الدول الاستعمارية. ولا تزال صورة التحالف الامبريالي الذي قادته امريكا ضد العراق واضحة ومفضوحة، فهو لم يكن يهدف إلى اخراج الجيش العراقي من الكويت، وانما لاحكام السيطرة على بترول العرب، تمهيداً لنهبه ولتدمير القدرة الذاتية العسكرية والاقتصادية للامة العربية، وتحقيق قانون الاستعمار الامبريالي الثالث، وهو قانون السيطرة.

3. قانون السيطرة

ويعني التحكم وفرض الارادة بما يخدم المصلحة. وتأخذ السيطرة اشكالا مختلفة تتناسب مع طبيعة الدولة الاستعمارية والبلاد المستعمرة. ويلعب قانون المصلحة دورا هاما، في انتقاء شكل السيطرة الاكثر ملاءمة، لتحقيق الحد الاقصى للمصلحة في الزمان والمكان، وفي الكم والكيف. ومن الطبيعي، مع تغيير الظروف، ان تتغيّر اشكال السيطرة، لتضمن استمرار الاستغلال.

وتشكل قوانين الاستعمار الثلاثة بترابطها النظرية الاستعمارية. فانطلاقا من التفوق، الذي يشكل المبدأ والمنطلق، سعيا وراء تحقيق الاستغلال والمصلحة، وهي ما يشكل هدف (لا بد من السيطرة). الاسلوب الاستعماري لتحقيق تكامل نظريته. وفي كل النظريات، التي توضع موضع التطبيق، فان الابداع لا يكمن في تحديد الاهداف او المبادئ. وانما في استخدام الاساليب الصحيحة، التي تحقق هذه الاهداف. وهنا تتمايز الدول الاستعمارية عن بعضها البعض. فعبقرية التوازن بين الرغبات والامكانيات القادرة على تحقيقها. والتوقيت الصحيح في استخدام اسلوب ما، او عدم استخدامه، تكمن في القدرة الذاتية للدول. فاذا كانت السيطرة عبر الاحتلال المباشر مفيدة في بعض الاحيان، فانها قد لا تكون الاكثر فائدة. وقد يكون استمرار الاحتلال المباشر مضراً. ولكن التجزئة والتخلف والتبعية، تظل الاساليب الانجع لفرض السيطرة الاستعمارية لا طول مدى. ولقد مارست كل الدول الاستعمارية هذه الاساليب مجتمعة او

متلاحقة. لقد استخدمت بريطانيا اسلوب التدخل العسكري المباشر، لتفرض انسحاب جيوش ابراهيم باشا إلى مصر. ومع استشعار بريطانيا للخطر الذي شكله طموح محمد علي وابنه ابراهيم باشا في بناء دولة مستقلة، تضم مصر وسوريا الكبرى وشبه الجزيرة العربية، كان لا بد من ابتكار اسلوب جديد لمعالجة هذه الظاهرة. وعلى السطح برزت احلام نابليون، التي لم يتوان الفايكونت بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا عن اختطافها وعرضها على السلطان العثماني عبر رسالة إلى السفير البريطاني في القسطنطينية، يقول فيها (... ان عودة الشعب اليهودي بموافقة وحماية ودعوة السلطان، سوف تقف حائلا دون اية مخططات شيطانية مقبلة لمحمد علي او خليفته) (7).

وكانت هذه بداية لفكرة استراتيجية التوتر الدائم، التي شقت طريقها، على ابواب القرن العشرين.

ثانيا: النظام العالمي

وتطوره حتى نهاية الحرب العالمية الثانية

منذ هزيمة نابليون وحتى هزيمة هتلر.. سيطر على العالم نظام عالمي جديد لعبت فيه بريطانيا دورا رئيسيا في قيادة التحالفات. وكان الاسطول البريطاني هو رمز القوة والانتشار على مساحة في العالم، لا تغيب عنها الشمس. وكان انتصار بريطانيا في معركة واترلو حاسماً. وكان دورها القيادي في مؤتمر فيينا عام 1815 بارزاً. وقد تكرس هذه الدور في تصديها لطموحات محمد علي في توحيد المنطقة العربية الشاسعة، التي تشمل مصر وسوريا الكبرى والجزيرة. وكان مؤتمر لندن عام 1840 هو الذي كرس الدور القيادي لبريطانيا ضمن مجموعة من القوى المتناحرة فيما بينها. وقد استمر هذا التحالف والتناحر بين اطراف التحالف المقدس فانشغلت فرنسا في حروب مع المانيا، التي استطاع بسمارك بتوحيدها ان يهزم فرنسا عام 1870، ويهيئ بذلك لبروز القوة الالمانية، والتي مهدت لاندلاع الحرب العالمية الاولى عام 1914.

لقد سادت بريطانيا العالم وفرضت عليه نظاما عالميا، كان يوصف بكونه عصر الهيمنة البريطاني (Paxa Pritannica).فلقد كانت بريطانيا العظمى اكبر الدول الاستعمارية واكثرها خشية من المستقبل. ولمواجهته بصورة علمية، قام رئيس الوزراء البريطاني السير هنري كامبل بنرمان بتشكيل لجنة الاستعمار عام 1907 وقد ضمت نخبة من اساتذة الجامعات في شتى العلوم والمجالات كالاقتصاد والتجارة والبترول والزراعة والتاريخ. والاجتماع... كما ضمت هذه اللجنة اجتماع أعلام السياسة في الدول الاستعمارية فرنسا بلجيكا هولندا، البرتغال، إيطاليا أسبانيا وبريطانيا. وكانت كلمة بنرمان في الافتتاح تشكل تحديدا واضحا لمهمة اللجنة حيث قال: "... ان الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تنحل رويدا ثم تزول. والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة فهنالك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها، فهل لديكم اسباب او وسائل يمكن ان دون سقوط الاستعمار الاوروبي وانهياره. أو تؤخر مصيره. وقد بلغ الآن الذروة واصبحت اوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معالمها بينما لا يزال العالم الآخر في صرح شبابه يتطلع إلى

المزيد من العلم والتنظيم والرفاهية؟. هذه هي مهمتكم ايها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا..." (8).

كان واضحا ان على اللجنة تحديد الاساليب التي تمنع سقوط الامبراطوريات الاستعمارية القائمة والتي تؤمن سيطرتها الدائمة من اجل استغلال اشمل واطول.

واساليب الاستعمار المعروفة للسيطرة لا يمكن استبعادها وان كان مطلوبا تطويرها وملائمتها لواقع كل حالة. فالاستعمار التقليدي بحاجة إلى ثوب جديد يستبدل الجيوش والاحتلال المباشر. بقواعد عسكرية او بانتداب مؤقت. ليتطور إلى شكل حكومات عميلة ومنظمات دولية خاضعة او شركات متعددة الجنسيات.

وكان اهم ما واجه لجنة الاستعمار هو وضع منطقة البحر الابيض المتوسط وخاصة شرقه وجنوبه. حيث يمتد العالم العربي في وحدة جغرافية من المحيط إلى الخليج ووحدة تاريخية عريقة تؤكدها لغة مشتركة ودين مشترك وثقافة مشتركة وآمال بالمستقبل واحدة موحدة ناهيك عن سيطرته الكاملة على ثرواته الطبيعية وموارده البشرية التي ان تحققت فانها ستشكل للاستعمار الضربة القاضية.

واجمعت كل الدول على ان مصالحها المشتركة تكمن في بقاء هذا الجزء في حالة تجزئة وتخلف ولكي يستمر ضمان ذلك على المدى الطويل كان لا بد من استخدام اسلوب استعماري جديد يضمن ديمومة السيطرة على هذه المنطقة. ولقد استوحت لجنة الاستعمار اكتشافها من ملفات نابليون وبالمرستون وديزرائيلي الذين نادوا باقامة كيان صهيوني في فلسطين يشكل حاجزا بشريا يعمل لخدمة الاستعمار ولئن كانت صرخاتهم في البرية قد ذهبت سدى لعدم اصغاء اليهود الذين كان الاندماج يشدهم إلى الاوطان التي ينتمون اليها. الا ان صراخ المذابح في روسيا وما تلاه من هجرات ومؤتمرات صهيونية يعمل على استيطان فلسطين جعلت لجنة الاستعمار تكتشف ان الحل الوحيد يكمن في فرض حالة التوتر الدائم في المنطقة وكما استرعت قناة السويس بوصفها المعبر الاساسي لطرق الاستعمار فقد شد رأس الرجاء الصالح ايضا انتباه انجلترا التي كانت تخشى من حرب تسد في وجهها قناة السويس. ومن هنا كانت بداية الترابط بين الشكل والاسلوب الجديد للاستعمار. الاستعمار الاستيطاني، الجسم الغريب الذي يشكل حالة التوتر الدائم والذي يشكل حالة استعمار مركزه تجمع في بؤرتها كل قوانين الاستعمار بشكل سافر. فقانون التفوق العنصري يترجم نفسه بوضوح في شعار (شعب الله المختار) وفي ممارسة التمييز العنصري كما ان قانون المصلحة يترجم نفسه على المدى الاستراتيجي باعتباره يحقق مصلحة دائمة متعددة الابعاد والاشكال، ام السيطرة فتتحقق عبر انابيب الدعم اللانهائي من قوى الامبريالية فتتكرس بها اشكال واساليب السيطرة الاخرى من تجزئة وتبعية وتخلف وترتاح الامبريالية من اشكال الاحتلال المباشر السافر.

وسارعت بريطانيا بزرع بؤرة التوتر الاولى في جنوب افريقيا ضاربة عرض الحائط بحقوق سكان افريقيا الاصليين. كان القرار البريطاني باصدار قانون تأسيس اتحاد جنوب افريقيا عام 1909 ثم جاء القرار البريطاني باصدار وعد بلفور الذي يزرع بؤرة توتر دائم في فلسطين لتلبي متطلبات لجنة الاستعمار التي جاء في تقريرها "ان الخطر يكمن في هذه المنطقة بالذات وبصورة خاصة في تحررها وتثقيف شعوبها وتطويرها وتوحيد اتجاهاتها، لذلك فعلى الدول ذات المصلحة ان تعمل على استمرار تأخرها وتجزئتها وابقاء شعوبها مفككة جاهلة متناحرة. وعلينا محاربة اتحاد هذه الشعوب وارتباطها بأي نوع من الارتباط الفكري والروحي او التاريخي. وايجاد الوسائل العملية القوية لفصلها بعضها عن بعض. وكوسيلة اساسية مستعجلة ولدرء الخطر توصي اللجنة بضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي من

هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي وتقترح لذلك اقامة حاجز بشري قوي غريب بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة" (9).

وبعد عشر سنوات من قرار لجنة الاستعمار، لجنة كامبل بنرمان، ثم الكشف عن مؤامرة تقسيم الوطن العربي، بما عرف بمشروع سايكس بيكو. وتبع ذلك اصدار وعد بلفور، الذي لم يكن تلبية لخطة الا ستعمار على ارض فلسطين والمنطقة العربية فحسب وانما كان ردا سريعا على ثورة اكتوبر الا شتراكية... الخطر الاعظم الذي اندفع يهدد الامبريالية ليس فقط في مستعمراتها وانما في عقر دارها... لقد كانت المراسلات بين بلفور والرئيس الامريكي ولسون هي حددت الصيغة النهائية لوعد بلفور والتي اتبعها ولسون باعلانه في آب 1918 ليس بالا شارة إلى وطن قومي يهودي في فلسطين وانما بتأسيس دولة يهودية حيث قال "اعتقد ان الامم الحليفة قد قررت وضع حجر الاسس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا" (10).

على الرغم من الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في الحرب العالمية الاولى ودورها في مؤتمر الصلح في باريس عام 1919 وتشكيلها لعصبة الامم، الا ان تطلعاتها الامبريالية التوسعية لم تظهر بعد، بل على العكس كانت مبادئ ولسون الاربعة عشر، والمنادية بحق الشعوب في تقرير مصيرها، هو ما كرس استمرار النظام العالمي البريطاني، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومشاركة امريكا فيها بشكل فعال.

لقد استطاعت بريطانيا ان توظف الثورة الصناعية الا ولى لخدمة اغراضها الا ستعمارية. فكانت سيطرتها على وسائل وقوى الانتاج في اطار عصر الرأسمالية، هي التي قدمت لها الاساس المادي للحفاظ على عصرها، في الوقت الذي خرجت فيه روسيا من اطار الرأسمالية، وتحولت إلى النظام الاشتراكي الذي حصر نفسه خلف ستار حديدي، تحت اسم الاتحاد السوفيتي.

وكان واضحا خلال الحرب العالمية الثانية ان نظام بريطانيا العالمي في طريقه إلى الافول. وان بوادر نظام عالمي جديد متعدد الاقطاب، يستند إلى اكثر من دولة عظمى هو المؤهل للبزوغ. وفي مؤتمر يالطا، ثم مؤتمر بوتسدام، تم وضع اسس النظام العالمي الجديد، وتحقق حلم الامم المتحدة كرمز لهذا النظام. وتشكل مجلس الامن كرمز لتعدد اقطاب العالم. ولكن الطريقة التي انهت فيها امريكا الحرب. وتطلعها بوصفها المالك الاساسي لناصية الثورة الصناعية الثانية، التي تطورت فيها التكنولوجيا وكيمياء المواد والطاقة النووية، جعلها تتطلع إلى قيادة العالم. فما ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها، حتى بدأ العالم الجديد يعيد بناء ما لحقه من دمار على جهتي الدول المنتصرة والمهزومة على حد سواء. دولة واحدة شاركت في الحرب ولم تسقط على ارضها أية قنبلة هي الولايات المتحدة الامريكية (ففي الوقت الذي تدمرت فيه صناعة البلدان الرأسمالية الاخرى ابان الحرب طورت الولايات المتحدة الامريكية جهازها الانتاجي بوتائر محمومة. وزودت صناعتها بأحدث الاجهزة بقيمة 25 مليار دولار) (11).

ولقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب تحمل عقدة التفوق المطلق بما حصدته من مكاسب اقتصادية وعسكرية في وقت كان فيه حلفاؤها من الدول الرأسمالية يلهثون وراء قروض منها لترميم اقتصادهم ومتطلبات وجودهم. وقد بدأت سياسة الهيمنة المطلقة تتسلل إلى شرايين الحياة السياسية الامريكية وبدأ قانون السيطرة الامبريالي يشق طريقه ليحقق السيطرة على الاصدقاء والاعداء على حد سواء فحين كان الكونجرس يبحث موضوع قرض لبريطانيا قيمته 3 مليارات من الدولارات صرح النائب جون ماكورماك زعيم الاغلبية في مجلس النواب الامريكي بأنه على التصويت بشأن هذه المسألة (تتوقف قضية ما اذا

كانت الولايات المتحدة الامريكية ستحتل مكانتها بمثابة الزعيم الفعال بين دول العالم ام لا) (12).

وبنفس المعنى اكد الرئيس ترومان اثر توليه منصب الرئاسة (ان النصر المحرز قد القى على الشعب الامريكي مسؤولية دائمة عن قيادة العالم) (13) تتطلب المزيد من السيطرة العسكرية والاقتصادية والسياسية فقد سادت سياسة مواقع القوى والحرب الباردة والتحضير لحروب عدوانية جديدة.

عندما كان روبرت اوبنهايمر مدير مشروع مانهاتن الذي كلف 2191 مليون دولار يرقب انفجار اول قنبلة ذرية يوم 16 تموز سنة 1945 في الاماغورودو في صحراء نيومكسيكو كان يدرك جيدا خطورة التجربة. كانت القنبلة من البلوتونيوم وقد انفجرت بعصف تعادل قوته التدميرية (14 ألف طن من مادة ال (تي ان تي). يومها اقتبس اوبنهايمر القول التالي من سرى كريشنا. الذات العليا (لقد اصبحت انا الموت بعينه ومدمر العوالم) (14).

بعد عشرين يوما فقط من هذه التجربة كان الموت والدمار يخيمان على هيروشيما وبعدها بثلاثة أيام على نجازاكي ماسحا معه ما سحقه من ارواح الضحايا كل ما تبقى من مبدأ ولسون لحقوق الانسان الذي اعلنه عام 1918 وخاصة ما جاء فيه حقول حق الشعوب في تقرير مصيرها. ونشأت نتيجة للشعور الامريكي بالتفوق الذري عقدة السيطرة على العالم. وبدأ نهج الدبلوماسية الذرية للامبريالية الامريكية يشق طريقه. فلقد صرح وزير خارجية الولايات المتحدة بيرنز وهو يبرر جريمة الامبريالية في قصف هيرشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية (ان استخدام القنبلتين كان ضروريا ليس للحرب ضد اليابان بقدر ما هو ضروري لجعل روسيا اكثر تساهلا في اوروبا) (15). كما اعترف فاينبار بوش رئيس لجنة الابحاث الدفاعية الوطنية الامريكية ان احد اسباب استعجال التاريخ الذري في صيف 1945 كان "بدافع عدم ايجاد ضرورة للقيام بتقديم تنازلات لروسيا عند انتهاء الحرب) (16). بل واكثر من ذلك فإن العالم الفيزيائي الانجليزي البارز البروفيسور بليكيت اشار إلى ان (القاء القنبلتين الذريتين لم يكن عملا اخيرا في الحرب العالمية الثانية بقدر ما كان اول عملية كبيرة في الحرب الدبلوماسية الباردة ضد روسيا) (17).

وقد وصلت عقدة التفوق اوجها في لحظات الشعور بالتفرد بامتلاك ناصية السيطرة على مفتاح العلم والتكنولوجيا وتقمص الشيطان الاسود روح العظمة وامتلاك العالم. وقد عبر عن هذا الشعور رئيس الاركان الاسبق للجيش الامريكي ماكسويل تيلر بقوله (ان القوة التدميرية المفزعة للقنابل الذرية ولدت وجهة نظر تؤكد ان قواتنا الجوية تمتلك الآن سلاحا حاسما سيتيح للولايات المتحدة من الآن فصاعدا فرض رقابة بوليسية على العالم وارغامه على تقبل نوع من (Pax Americana) العالم الامريكي (18).

كان على الاتحاد السوفيتي الذي حقق انتصارات هامة في أوروبا ان يواجه التهديد الامريكي. واستطاع ان يحقق نجاحات كبيرة في مجالات العلم والتكنولوجيا، التي لعبت دورا حاسما في وضع حد للتفرد الامريكي في امتلاك الطاقة النووية. والتي كانت امريكا تترجمها على شكل سياسة الدبلوماسية الذرية، وحافة الهاوية، وسياسة القوة. وقد واجه الاتحاد السوفيتي سياسة الغطرسة والهيمنة الامبريالية باتخاذه موقفا داعما لحركات التحرر في العالم. ووقف بحزم ضد سياسة الاحلاف العسكرية التي بدأت امريكا تتفنن في انشائها. وتشكل حلف وارسو ردا على حلف شمال الاطلسي.. وكان حلفاء امريكا من الدول الاستعمارية القديمة يدرجون في طريق العجز وبدأت نظرية ملء الفراغ تلعب دورها بعد ان تساقطت انياب بريطانيا العجوز وفرنسا الهرمة ابان العدوان الثلاثي على مصر. وفي نفس الوقت اعلن الاتحاد السوفيتي على لسان رئيس الوزراء بولجانين مهددا بريطانيا، ان لم تنسحب من مصر، بقوله: (ماذا سيكون موقف بريطانيا لو ان دولا اقوى هاجمتها بكافة انواع الاسلحة الحديثة ومنها الاسلحة

الصاروخية؟ من الممكن ان تتطور الحرب في مصر إلى حرب عالمية ثالثة... لقد عقدنا العزم على استخدام القوة لسحق المعتدين واعادة السلام إلى ربوع الشرق) (19).

لقد دفن تصريح بولجانين العصر البريطاني جنبا إلى جنب مع مشروع النظام العالمي المتعدد الاقطاب. واصبح واضحا ان العالم يتمحور ايديولوجيا.. وعسكريا.. وسياسيا حول محورين اساسيين. محور العالم الاول الرأسمالي، بقيادة الولايات المتحدة الامريكية، ومحور العالم الثاني، بقيادة الاتحاد السوفيتي. وقد تكرس هذا الواقع للنظام العالمي المتناحر بعد ان حقق السوفييت الغاء التفوق المطلق للقدرة العسكرية الامريكية، بعد نجاح التجارب السوفيتية لتطوير الاسلحة الصاروخية البالستية العابرة للقارات في العام 1957.والتي صاحبتها سلسلة التجارب الناجحة لتطوير الاسلحة الذرية والاسلحة النووية الحرارية. وقد ازداد ازدهار التفوق السوفييتي بنجاح تجربة اطلاق اول صاروخ في تاريخ البشرية، يحمل إلى الفضاء الكوني اول قمر صناعي، وذلك في الرابع من اكتوبر عام 1957 ولكن هذا الباب الذي فتحه السوفييت في سباق حرب الفضاء، كان هو الباب الذي خرج منه الاتحاد السوفيتي إلى عالم ما تحت الارض، عالم التفكك، لعدم قدرته على مضاهات امريكا في الثورة الصناعية الثالثة، الثورة العلمية التكنولوجية، التي كانت من ابرز معالم المتغيرات، التي قضت على القديم. والتي استطاعت نظريتها قبل التطبيق، ان تحقق في حرب النجوم انتصاراً امريكياً حاسما على الاتحاد السوفيتي.

ثالثاً: المتغيرات التي احدثت التغيير

لم يكن الانهيار الذي اصاب الاتحاد السوفيتي وليد صدفة، او لأن رجلا اسمه غورباتشوف حاول اعادة بناء الاتحاد السوفيتي، فاستطاع تفكيكه بسهولة، ولكنه عجز عن اعادة تركيبه وبنائه من جديد. لقد كان ما اصاب الاتحاد السوفيتي نتيجة وليس سبباً.. نتيجة لعدد من المتغيرات الموضوعية العامة والذاتية الخاصة في بنية الاتحاد السوفيتي نفسه. ان التحولات الاجتماعية التي نشاهدها وكأنها تحدث طفرة، هي في الحقيقة نتيجة لسلسلة متصلة من العمليات التي تحدث تحت السطح وخارجه، تلتقي معا في لحظة حرجة يتم فيها التغيير المفاجئ. وما يحدث من تحولات اجتماعية يشبه تماماً ما يحدث تحت سطح الارض من تفاعلات كيماوية واندماج وانفصال بين مواد حساسة، تؤدي إلى اطلاق وانشطار نوبات تعطي من الطاقة، ما يحدث الهزات الارضية العنيفة او الصدوع والفوالق والطيات، التي، تحول قيعان البحر والمحيطات إلى قمم الجبال.

ويمكن ايجاز المؤثرات الخارجية والتغييرات، التي ادت إلى انتصار امريكا المطلق في الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، وهو ما يوصف بأنه المدخل لتكوين نظام عالمي جديد، بالمتغيرات التالية:

1. **الثورة العلمية والتكنولوجية.**

2. **التغيير في النظام العالمي.**
3. **بروز التكتلات الاقتصادية العالمية.**
4. **تفتت العالم الثالث وانقسامه.**
5. **التحولات في قائمة اولويات العالم.**

1. الثورة العلمية والتكنولوجية

إن ما وصلت اليه الثورة العلمية التكنولوجية اليوم من مستوى وتطور، جاء نتيجة التراكم لسلسلة التجديدات التي غيرت من تركيب رأس المال، الثابت منه والمتغير. وما حققته الثورة الصناعية الاولى التي ارتبطت بموجة تطوير النسيج، من اليدوي إلى الآلي. وحركة السفن، من الاشرعة إلى الطاقة البخارية. ولم تتوقف الثورة الصناعية الاولى عند مجرد الانتقال من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية. فقد طورت انتاج الصلب الذي اندمج مع الطاقة البخارية ليؤدي إلى ظهور القطارات والسكك الحديدية. ومع استخراج النفط وتوظيفه بشكل علمي، وتطوير الكهرباء والكيمياء واكتشاف الالكترون والطاقة النووية، تحقق دخول البشرية مرحلة الثورة الصناعية الثانية.

من الطبيعي ان يرتبط النظام العالمي في كل عصر من عصوره بالمستوى الذي تصل اليه الثورة الصناعية، وثورة العلم. فلقد كان النظام العالمي الذي عاصر الثورة الصناعية الاولى، يعتمد على الاستخدام المكثف للعمل. وكان النظام العالمي الذي عاصر الثورة الصناعية الثانية يعتمد على رأس المال المكثف. بينما اصبح النظام العالمي الراهن يعتمد على تطوير قوى الانتاج بالاستناد إلى العلم والتكنولوجيا والثورة العلمية التكنولوجية ودروها في خدمة التجارة والصناعة والمال.

لقد اصبح التقدم العلمي اسرع من التطور التكنولوجي التطبيقي، وحيث ان هذا التقدم التكنولوجي اسرع من تطور الانتاج نفسه، فقد اصبح العلم نفسه قوة انتاجية.

لقد اكتشفت البشرية عبر تاريخها الطويل قانون التطور المتصاعد للقوى الانتاجية، وهو قانون يقرر ضرورة التغيير المستمر في القوى الانتاجية بحيث يؤدي إلى اضطراد الزيادة في قدرة المجتمع الكامنة على الانتاج. لكن احداً لم يكن يعتقد في قدرة الرأسمالية، وخصوصا في مرحلتها الاحتكارية على تطوير قواها الانتاجية إلى هذا الحد. ففي خلال أقل من قرنين من الزمان انتقلت البشرية من عصر الثورة الصناعية إلى عصر الثورة العلمية والتكنولوجية، حيث اصبح العلم هو القوة الانتاجية الاول في تحديد سيطرة الانسان على الطبيعة (20).

لقد تميزت الثورة العلمية والتكنولوجية عن الثورة الصناعية الثانية باهتمام العلم المجرد بالتطبيق المباشر. لكنها تميزت ايضا بالتقريب الكامل بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، بل وظهور علوم مشتركة.

وبربط العلم بالانتاج مباشرة. زادت انتاجية العمل إلى مستويات غير مسبوقة. واتيحت للانسان قدرة هائلة على السيطرة على ظواهر كثيرة. وبالعقول الالكترونية اصب في الامكان اثبات او نفي كثير من النظريات.. وتحقق تقدم شامل في اربعين سنة، يفوق التقدم الذي حدث خلال اربعين قرنا... (21).

لقد نشأت علوم جديدة لم تكن معروفة، كالبرمجة الالكترونية ولكن اخطر العلوم على الاطلاق هو علم السبرناطيقا، وهو علم التحكم والاتصالات بكل مظاهره في الآلات والحيوانات وبين بعضها البعض. وقد اضاف هذا العلم للمعرفة مناهج موضوعية للوصف الدقيق في مجال عمليات التحكم والرقابة والاتصال ونشر المعلومات وخصوصا في مجال البرامج المحددة للتحليل الكمي.

قامت الثورة الصناعية باحلال الآلات بدل الجهد العضلي للانسان. ولكن الثورة التكنولوجية قامت باحلال اجهزة تحل محل العمل العضلي تلقائيا وذاتيا واوتوماتيا. وتقوم بوظائف العقل البشري، وهكذا تطورت ادوات العمل من ادوات بسيطة إلى ادوات آلية ومن ثم إلى اوتوميات. واصبح دور الجانب غير الحي يزداد بالنسبة للجانب الحي في عمل الانسان، وحلت آلات محل عقل الانسان، بحيث تقوم بعدد كبير من العمليات الذهنية، وقد تؤديها بكفاءة أكبر (22).

وهكذا اخذت الثورة العلمية التكنولوجية تعبر عن نفسها في صورة ثورة في كل من العلم والانتاج، اللذين اخذا يندمجان اكثر فأكثر في صورة الاوتوماتية. فالاوتوماتية او الآلية الذاتية هي في الواقع لب الثورة العلمية التكنولوجية. ويمكن التمييز بين الآلية والاوتوماتية من خلال ملاحظة النشاط الانساني بنوعية العضلي والعقلي او الذهني. ففي حين تقوم الآلية لتدعيم النشاط العضلي والقيام بمهماته فإن الاوتوماتية تقوم بالاعمال التفصيلية والذهنية معا. فاذا كانت الآلية هي امتداد لتطوير عضل الانسان، فإن الاوتوماتية هي امتداد لتطوير عقله وفكره معا.

ويتمثل جوهر الثورة العلمية والتكنولوجية في مبدأ الاوتوماتية باشكالها الثلاثة: السبرناطيقي، الكيماوي، والنووي: ويمثل هذا المبدأ لدورة اللقاء المباشر بين العلم والانتاج وتهميش عمل الانسان. وقد تجسد التكامل في اشكال الثورة العلمية والتكنولوجية نظريا في مبادرة الدفاع الاستراتيجي، المعروفة باسم حرب النجوم. وهي في تقديرنا السبب المباشر، الذي ادى إلى استسلام الاتحاد السوفيتي لصالح الولايات المتحدة الامريكية. ولاهمية هذا الجانب من الثورة العلمية والتكنولوجية، سنقوم باستعراضه بما يساعد على فهم دور الثورة التكنولوجية، في تحقيق النصر الامريكي بدون حرب.

شهدت حقول دوفين للتجريب في صحراء نيفادا أول نجاح لتفجير نووي سجل في مخرج الجهاز الليزري اشعاع ليزري روتنجيني مترابط. لقد تحقق ذلك في شهر نوفمبر 1980 بعد سلسلة من تجارب فاشلة، قام بها مختبر ليفرمور ولا تزال التجارب العلمية مستمرة في حقول التجريب في صحراء نيفادا في نطاق برنامج تعميم الليزر الروتنجيني. ويعتقد العلماء ان النتائج الباهرة التي توصل اليها مختبر الاشعاعات الوطنية في ليفرمور هي السبب الذي دفع الرئيس ريغان إلى اعلان مبادرته للدفاع الاستراتيجي. وتنطلق الفكرة النظرية العلمية للدفاع الاستراتيجي من تأمين امكانية تدمير الصواريخ عابرة القارات منذ لحظة انطلاقها وقبل وصولها لاهدافها. وحيث ان الصاروخ عابر القارات يمر بمراحل مختلفة منذ لحظة انطلاقها وقبل وصولها لاهدافها. وحيث ان الصاروخ عابر القارات يمر بمراحل مختلفة منذ الانطلاق وحتى الهدف فان الدفاع لا بد ان يتخذ انساقا متعاقبة بحيث يتابع الصاروخ في كل مراحل حركته. وحين اعلن الرئيس ريغان عن مبادرته في 23 آذار 1983 وجه نداء إلى العلماء الامريكيين دعاهم فيه إلى البحث عن وسيلة مناسبة من اجل حماية الولايات المتحدة وحلفائها من خطر تهديد نووي

وذلك لتعطيل فعالية هذا السلاح. كما اعلن الرئيس ريغان بأنه يهدف إلى اعطاء دفعة جديدة باتجاه البحوث المتعلقة بالانظمة الدفاعية المضادة للصواريخ. ولكي نتعرف جيدا على الاساس العلمي للمبادرة لا بد لنا من استعراض مراحل انطلاق الصواريخ عابرة القارات وتحليقها وتحديد نقاط الضعف فيها والتي هي مصدر قوة الاساس العلمي للمبادرة.

ينطلق الصاروخ من الارض او من الغواصات مدفوعا بمحركات دافعة كيميائية وتبقى محركاته متوقدة لفترة من 3-5 دقائق يصبح فيها الصاروخ على ارتفاع 200-400 كلم ويعتمد ذلك على عوامل مختلفة منها الظروف الجوية ووزن الرؤوس البالستيكية المستخدمة. وهذه المرحلة تسمى مرحلة التعزيز وهي اهم المراحل فيما يتعلق بمبادرة الدفاع وذلك لسهولة رصد الصاروخ بكل اجزائه ومحركاته المشتعلة خصوصا وان تدميره في هذه المرحلة يتم وهو فوق اراضي البلد الذي اطلقه.

وفي نهاية مرحلة التعزيز تنفصل عن الصاروخ المحركات وخزانات الوقود الدافعة ويتحول إلى مركبة فضائية خارج الغلاف الجوي وبارتفاع يعادل طبقتين او ثلاث طبقات جوية. وبعد 5-7 دقائق تنفصل عن المركبة الرؤوس النووية المبرمجة مسبقا لتتجه نحو اهدافها. وتقوم المركبة باطلاق اعداد كبيرة من الرؤوس النووية المزيفة وبالونات تحمل رؤوسا مزيفة وحقيقية ورقائق التشويش المعدنية المضادة للرادارات والاشعة تحت الحمراء وذلك لتعقيد عملية الدفاع حيث يصعب التمييز بين الرؤوس النووية الحقيقية والمزيفة.

وفي المرحلة النهائية تتوجه الرؤوس النووية نحو الارض باتجاه اهدافها العسكرية او المدنية وتدخل الغلاف الجوي فيتضاعف وزنها وتتعرض إلى حرارة عالية نتيجة للاحتكاك في الاجزاء الجوية السفلى. وبعد وقت لا يتجاوز الدقيقتين تصيب الرؤوس اهدافها بزاوية افقية تتراوح بين 15-35 درجة. ومعدل سرعة الصاروخ 7 كلم في الثانية وبذلك تستغرق رحلة العشرة آلاف كلم حوالي نصف ساعة.

إن عملية الدفاع تكون فعالة عندما تواجه الصواريخ وهي في مرحلة الانطلاق، وحيث ان الصواريخ في هذه الحالة تكون في اجواء البلد المهاجم فانه من المتعذر على أي نظام دفاعي على الارض ان يتصدى لها ويهاجمها. ولذلك فلا بد من وجود شبكة الدفاع في الفضاء. ولتحقيق عملية التصدي للصواريخ في هذه المرحلة فان النسق الدفاعي المتكامل يتطلب اولا تحديد مكان وزمان الصاروخ الهدف عبر عملية استشعار دقيقة وسريعة حيث ان مرحلة الانطلاق يتم الآن انقاصها من ثلاث دقائق إلى اقل من دقيقة واحدة. وهذه يلغي امكانية الاعتماد على العنصر البشري في ادارة المعركة الدفاعية. ويتطلب ثانيا استخدام كمبيوتر مؤهل لمواجهة كل المتغيرات المحتملة. ويتطلب وجود السلاح الفعال والسريع القادر على تدمير الصاروخ. والاستشعار البصري يتميز بسرعته العالية حيث تساوي سرعة الضوء 300 ألف كلم في الثانية. وباستخدام اشعة الليزر كسلاح فعال في هذه المرحلة يتميز هو ايضا بسرعته الهائلة المساوية لسرعة الضوء. فإن العلماء يعتقدون ان هذا النسق قادر على تدمير 90 % من الصواريخ وما تحمله من الرؤوس النووية.

الما النسق الثاني للدفاع فإنه يستهدف تدمير الرؤوس النووية التي تجاوزت مرحلة الانطلاق وانفصلت عن الصاروخ وتكون على ارتفاع 600-1200 كلم. وهذه المرحلة شديدة التعقيد لما تشمله من التمويه وتعدد الاهداف الكاذبة وصعوبة الفصل بين ما هو حقيقي وما هو كاذب. وتستخدم في هذه المرحلة اسلحة الطاقة الحركية الموجهة من المدافع الكهرومغناطيسية او بواسطة صواريخ صغيرة مزودة برؤوس توجه ذاتيا بالاشعة تحت الحمراء او بالحرارة.

ويعتمد النسق الدفاعي الثالث على الصواريخ الاعتراضية المنطلقة من الارض للتصدي للرؤوس النووية بعد دخولها الغلاف الجوي وعلى ارتفاعات متوسطة 100-800 كلم او ارتفاعات منخفضة 9-14 كلم ويعتمد هذا النسق على الرادارات لكشف مكان وحركة الرأس النووي. علما بأن تفجيره على ارتفاع منخفض يحلق اضرارا جسيمة، بسبب الاشعاعات النووية القريبة من الارض. ولكن الاخطر هو قدرة الرأس النووي على تخطي كل انساق الدفاع ووصوله للهدف. وهنا تكمن نقطة الضعف الكبرى في مبادرة الدفاع الاستراتيجي حيث يكفي ان يصل عدد محدود جدا من الرؤوس النووية إلى الاهداف العسكرية او المدنية لتطوي صفحة الحياة في هذا الكون.

إن الاساس العلمي للمبادرة من وجهة النظر الدفاعية الاستراتيجية مليء بالثغرات المدمرة، والتي تفقد المبادرة اي معنى، ولكنها تكشف حقيقة واضحة... تكشف ابعاد المبادرة المؤامرة على البشرية وبتعريضها للخوض في استراتيجية التوتر الدائم والقلق المستمر على الكون لما يحمله الاساس العلمي للمبادرة وما عبرت عنه الاسس النفسية والعسكرية والسياسية من ان المبادرة تحمل في طياتها نوايا الهجوم الاستراتيجي الذي يقوم اساسا على مبدأ الضربة الامريكية الاولى ضد الاتحاد السوفيتي، في حين تكون مهمة أسلحة الفضاء الغاء امكانية تأثير ضربة سوفيتية ثانية وبهذا استطاع ريغان ان يفرض الاستسلام على الاتحاد السوفيتي (23).

2. التغيير في النظام العالمي

استقر النظام العالمي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية على نظام القطبين، الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، والاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي. وتجسد العالم الاول (الرأسمالي) في حلف الاطلسي والعالم الثاني (الاشتراكي) في حلف وارسو. واصطلح على تسمية الدول خارج المعسكرين بالعالم الثالث. وحيث ان التنافس والتناحر بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي كان شديدا، وكانت الحرب الباردة تنتقل من بؤرة توتر إلى اخرى في مناطق دول العالم الثالث، عقد كبار شخصيات هذا العالم، عام 1965 مؤتمرا في باندونغ-يوغسلافيا، حضره القادة جمال عبد الناصر، ونهرو، سوكارنو، وتيتو وغيرهم، واعلنوا تشكيل منظمة دول عدم الانحياز.

لقد مرت علاقات القوى بين المعسكرين بأربعة مراحل:

1 مرحلة التفوق الامريكي.

2 مرحلة التوازن الاستراتيجي.

3 مرحلة الركود السوفيتي.

4 مرحلة الانهيار السوفيتي والتفرد الامريكي.

استمرت المرحلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الخمسينات. وقد تمتعت فيها امريكا بمرحلة محكومة بعقدة التفوق الذري والاقتصادي. وكانت صاحبة اليد العليا على حلفائها واعدائها على

حد سواء. وكان الاتحاد السوفيتي في هذه المرحلة يجاهد للسيطرة على التحكم بالثورة الصناعية الثانية وبتطوير اسلحة المواجهة مع امريكا.

أما المرحلة الثانية، فقد تحققت بشكل واضح بعد اعلان الاتحاد السوفيتي عن امتلاكه للصواريخ عابرة القارات، والتي من شأنها ان تحقق استراتيجية التوازن الاستراتيجي مع الولايات المتحدة. وقد استمرت هذه المرحلة منذ منتصف الخمسينات حتى منتصف السبعينات. وقد تم خلالها خوض حروب شرسة في جنوب شرق آسيا انتهت بهزيمة امريكا المذلة في فيتنام، المدعومة من الاتحاد السوفيتي والصين. وقد اصبح الاتحاد السوفيتي في هذه المرحلة قوة عظمى بالمعنى الحقيقي في مجالات حيوية متعددة.. فبالاضافة إلى كونه يمثل اكبر دولة من حيث المساحة وثالث دولة في عدد السكان، والغني بالموارد الطبيعية والذهب والنفط والمواد الاستراتيجية وامتلاكه لنصف السلاح النووي في العالم. فانه اصبح يشكل المكانة الثانية من حيث حجم الاقتصاد. والمكانة الثانية في الانتاج الصناعي. ونما اقتصاده بحوالي 6 % سنويا. وخلال النصف الثاني من الخمسينات نمت استثماراته في البحوث والتطوير بما مقداره 8 % كل عام. ومع نهاية ذلك العقد كان لدى الاتحاد السوفيتي أكبر جماعة علمية في ذلك المجال من حيث عدد الافراد. ولذلك لم يكن مدهشا، وفقا لمعدلات النمو هذه، ان يعلن نيكيتا خوروشوف في زيارة للولايات المتحدة عام 1959، ان الاتحاد السوفيتي سوف يتفوق على الولايات المتحدة في عام 1970 أو 1980 على الاكثر. هذه التوقعات تضمنها برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي عام 1960 وظل يتم ترديدها عاماً بعد عام، حتى ازيلت من البرنامج في عام 1985. (25)

أما المرحلة الثالثة والتي امتدت من منتصف السبعينات حتى منتصف الثمانينات، فهي مرحلة تميزت بالتأثير المباشر للثورة العلمية والتكنولوجية وبإزدياد الفجوة بين المعسكرين في مجالات العلم والتكنولوجيا. فقد استطاعت الرأسمالية ان تجدد شبابها بعد سلسلة الانتكاسات التي اصابتها في صراعاتها مع حركات التحرر في العالم. وتركزت آثار الثورة العلمية والتكنولوجية على مجالات متعددة عسكرية ومدنية. وازدهر الاقتصاد وادى انقسام العالم إلى بروز عالم رابع.. عالم النفط الذي مثلته دول الخليج العربي اوضح ممثل، حيث ارتبط اقتصاديا وسياسيا بالعالم الاول.. واصبح دخله الهائل يفوق احتياجات سكانه القلائل، فأصبحت ثروته في خدمة الرأسمالية. وفي نفس الوقت حدثت تغيرات جذرية داخل الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية ظهرت ملامح امبريالية اشتراكية كما يسميها الصينيون، تجسدت في حروب فيتنام في كمبوديا، والاتحاد السوفييتي في افغانستان. وتفاقمت الاوضاع السياسية والاقتصادية في بلدان العالم الثالث التي اعتمدت الاشتراكية مثل كوبا، افغانستان، كمبوديا، فيتنام، اثيوبيا، الصومال، لاوس، موزمبيق، انجولا..

نتيجة لكل ذلك ساد الركود الاقتصادي والجمود العلمي في الاتحاد السوفيتي. وبدأت التحولات العالمية مع صعود ريغان وسياسته العدوانية الصارخة ضد الاتحاد السوفيتي الذي وصفه بعالم الشر. واعلن عليه حرب النجوم تحت شعار مبادرة الدفاع الاستراتيجي والتي كما وصفناها سابقا جعلت الرئيس السوفييتي غورباتشوف، يدرك الحجم الحقيقي للاتحاد السوفييتي. وبوصول غورباتشوف إلى سدة الحكم، بدأت المرحلة الرابعة التي يعيشها الآن ما يدعى الاتحاد السوفيتي. وما كانت تسمى المنظومة الاشتراكية. لقد خسر الاتحاد السوفيتي، نتيجة لاسباب كثيرة داخلية وخارجية، الحرب الباردة، وحرب النجوم، وتخلى عن مبادئه وعقيدته. وترك المنظومة الاشتراكية تتحلحل محاولة اللحاق بالسوق الحرة، متخلية عن الماركسية والاشتراكية، لاهثة وراء المساعدات والقروض. وقد خيل لغورباتشوف انه عبر توحيد المانيا، فان الطريق إلى دخول الاتحاد السوفيتي في الوحدة الاوروبية تحت شعار البيت الاوروبي الموحد، سيعطيه دورا قياديا جديدا في العالم. ولكن ادارة ريغان، ومن بعدها ادارة بوش استطاعتا عصر

غورباتشوف. وخداعه والقائه على قارعة التاريخ، بعد ان مجدوه في عالم اعدائه، ونصبوه بعد استسلامه رجل سلام عالمي.

كان لهذا التغير المأساوي في النظام العالمي اثره البالغ في تدمير الامن القومي العربي. وضرب تطلعات الامة العربية نحو مصيرها ووجودها كعملاق من عمالقة العالم. لقد استخدم بوش سياسته العدوانية لخلق عالم القطب الواحد وفرضه على العالم، بإحكام سيطرته على النفط.. الطاقة الرئيسية الداعمة للثورة العلمية التكنولوجية وتطويرها. وكان العراق يشكل العقبة الكأداء في وجه طموحات بوش. وخاصة انه رفض ان يساوم لتحقيق امنه القطري على حساب الامن القومي العربي. فكانت حرب الخليج والعدوان على العراق والسيطرة المطلقة على النفط بإعتبار ذلك ضرورة حتمية من ضرورات النظام العالمي الجديد الذي خطط له بوش. ذلك النظام الذي يفرض على كل المتطلعين لدور العمالقة، بالمنظور الاقتصادي خاصة في اوروبا واليابان، ان يلعبوا معه دورا ثانويا، حيث هو المتحكم الفعلي في توزيع النفط، وتحديد اسعاره كما يشاء.

3. بروز التكتلات الاقتصادية العالمية

مع دخول الثورة العلمية والتكنولوجية على الاقتصاد العالمي بشكل مباشر، حدثت فجوة كبرى بين الدول القومية بمؤسساتها ونظمها التقدمية والمالية المتعددة. وبين النظام الاقتصادي العالمي بمؤسساته ومنظماته، التي يقودها النظام الاقتصادي العالمي ومنظماته فانه يتصادم مع ما تمثله مصالح الدول القومية الخاصة. ونتيجة لكثرة الدول القومية وتعدد مصالحها الداخلية اصبح من الضروري بروز تكتلات قارية اقتصادية، تساهم في ازالة الحواجز والعقبات بين الدول القومية داخل التكتل الواحد، وتقلل من الاختلالات في السوق العالمية بما يساهم في القدرة على التنبؤ والاستقرار الاقتصادي العالمي. وقد برزت بشكل واضح التكتلات الاقتصادية الكبرى الثلاثة التالية:

أ. المجموعة الاوروبية

وهي تضم مجموعة الدول المنضوية في اطار السوق الاوروبية المشتركة. وقد كانت محاولات تشكيل هذا التكتل بشكل متكامل تصطدم بمصالح الدول القومية. وكانت السوق الاوروبية قد وصلت إلى طريق مسدود بسبب تغليب الدول لمصالحها القومية على المصلحة القارية للتكتل، مما نتج عنه الغاء ما قامت به السوق الاوروبية من ازالة حواجز تجارية وجمركية، بوضع حواجز مادية وفنية وغير جمركية جعلت وجود السوق الاوروبية واقعا بدون معنى. ويعتبر مشروع اوروبا 1992، الذي توصل إلى وضع قاعدة الحريات الاربعة، ووضعها موضع التنفيذ، وهي تشمل حرية انتقال السلع، والافراد، ورأس المال، والخدمات بين الدول الاعضاء، مقدمة هامة لبناء المؤسسة القارية الاوروبية التي تدعم القرار الاوروبي الاقتصادي والنظام النقدي. وعلى الرغم من بعض العقبات امام وحدة اوروبا التي اقرتها اتفاقية ماستريخت سواء بعدم التصويت عليها شعبيا في الدانمارك، او بسبب دور حصان طروادة الامريكي الذي تلعبه بريطانيا، الا ان توجه امريكا واليابان لدعم هذه التكتل كركيزة قارية من ركائز النظام العالمي وضرورة وجوده، خاصة ان ما يجري في اوروبا الشرقية، يستدعي موقفا اوروبيا غربيا لدفع التغيرات باتجاه السوق الحرة.

ب. مجموعة امريكا الشمالية للتجارة الحرة:

وتضم هذه المجموعة ثلاث دول هي الولايات المتحدة وكندا والمكسيك. ومن الواضح ان هيمنة الولايات المتحدة على هذه المجموعة تشكل مصدر خوف دائم بالنسبة لكندا على سيادتها القومية، خاصة وانها الدولة الانجلوسكسونية الباقية التي استطاعت ان تنجو من طموحات الثورة الامريكية وتحقق الاتحاد الكندي عام 1867 جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة الامريكية. وقد تحقق التفاهم بين البلدين بعد مفاوضات استمرت عامين، تم التوصل بعدها إلى اقامة منطقة تجارية حرة عام 1988 وقد توصلت ادارة بوش إلى ضم المكسيك إلى هذا التجمع في ذروة حملة الانتخابات، ليكون بذلك قد تحقق قيام سوق حرة في قارة امريكا الشمالية.

ج. مجموعة جنوب شرق آسيا:

وتضم هذه المجموعة رابطة امم جنوب شرق آسيا (آسيان) اضافة إلى اليابان، كوريا الجنوبية، استراليا، ونيوزيلاندا. وقد شاركت الولايات المتحدة وكندا مع هذه الدول في اجتماع عام 1989 على مستوى وزراء الخارجية. ولم يتبلور هذا التكتل بعد، الا انه بما يمثله من قوى وعلاقات انتاج اقتصادي، يشكل تحقيقه تحولا هاما في الاقتصاد العالمي والتجارة الدولية. فما تمثله دول جنوب شرق آسيا، وخاصة اليابان، من تقدم صناعي وتكنولوجي إلى جانب تحقيق التكامل القاري والمصلحة العامة على مصلحة الدول القومية في هذه المجموعة، وبما يحققه تقسيم العمل الانتاجي الاقتصادي والاعتماد المتبادل المكثف بين اليابان وبقية دول آسيا الباسيفيكية الرأسمالية والصناعية والمتطورة. سيكون لكل ذلك دوره الهام في ارساء اسس النظام العالمي الجديد.

4. تفتت العالم الثالث وانقسامه

قبل انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه، كان تعبير العالم الثالث، وتعبير دول عدم الانحياز يعطيان نوعا من المعنى، وان كان مجازيا فانه لا شكل، يعبر عن بعض الحقيقة. الا ان اختفاء العالم الثاني.. العالم الاشتراكي، يلغي بضربة واحدة تعبير العالم الثالث.. وكذلك تعبير عدم الانحياز.. هكذا يقتضي المنطق، ولا بد من البحث عن تسميات بديلة، تتطابق مع مقتضيات النظام العالمي الجديد.

ومن الملاحظ ان ما كان يعرف بالعالم الثالث، قد تأثر بشكل واسع بالفجوة الكبرى التي احدثتها الثورة العلمية والتكنولوجية التي ابتكرت بدائل كثيرة للمواد التي كانت تنتجها دول العالم الثالث. وادى اندماج التكتلات الاقتصادية إلى الاستغناء عن المنتجات الخام للعالم الثالث وتعويضها بشكل اسهل وارخص من خلال دول التكتل الواحد. وادى ذلك إلى تدهور نصيب دول العالم الثالث في التجارة الدولية، والاستثمارات العالمية.

ولم تصمد وحدة دول العالم الثالث حول مبادئ عدم الانحياز والتعاون الاقتصادي.. وغيرها من المبادئ التي سادت في الستينات. فقد حدث الانقسام داخل دول العالم المثالث مع درجات التطور العلمي والتكنولوجي لبعض الدول، التي برزت تحت اسم مجموعة الدول الصناعية الجديدة. لقد استطاعت دول مثل البرازيل والارجنتين، والمكسيك وكوريا الجنوبية، توظيف التكنولوجيا وتحقيق التنمية السياسية الملازمة

للتنمية الاقتصادية. ففي الوقت الذي كانت فيه مجموعة دول اخرى اقل نموا تعاني من مشكلات المجاعة والجفاف والتصحر، والاوبئة، انها مشكلة التراجع المضطرد والتقهقر بدل النمو.

وفي نفس الوقت، ومع بروز الثورة العلمية التكنولوجية في منتصف السبعينات. ازدادت اهمية النفط ليس كمصدر للطاقة. فقد اصبح مصدرا هاما لتطور كيمياء المواد، التي فتحت آفاقا للثورة العلمية، بما ليس له حدود. وقد نتج عن ذلك ان اصبحت الدول المنتجة للنفط خاصة الدول القليلة السكان، وبالتالي قليلة الالتزامات، والكثيرة الانتاج والمخزون، مثل دول الخليج عالما خاصا بذاته. هكذا انقسم العالم الثالث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الاول: ويضم مجموعة الدول الصناعية الجديدة، وهو يمثل الاقلية ذات الارتباط المباشر بالسوق الرأسمالية الغربية. وقد تركزت في هذه الدول عمليات الشركات المتعددة الجنسيات.

والقسم الثاني: ويشمل اغلبية الدول الفقيرة التي كانت لا تزال تدرج في بدايات الثورة الصناعية الاولى او الثانية على اكبر تقدير.

أما القسم الثالث: فهو يشمل دول الخليج الغنية بمال النفط إلى حد التخمة.. والقابع في التخلف عند حد العصر الحجري. ولهذه المفارقة يمكن ان نسميه مجازا العالم الرابع. العالم الذي رهن وجوده بعد حفر الباطن، حيث تحول إلى مستعمرة امريكية كبرى.

وفي اطار هذا التغير واعادة النظر إلى التغيرين السابقين في مجال النظام العالمي، ومجال تشكيل التكتلات، يمكن النظر إلى واقع العالم الراهن المتحول من نظام عالم القطبين إلى نظام عالمي جديد، لم تتبلور معالمه النهائية بعد. ولكن من الواضح انه لن يعود نظاما ثنائي القطبية بأي حال من الاحوال. ولكن الانطباع الاول لموقع العالم الثالث في النظام العالمي الجديد، هو انه سيصبح عالم الاطراف، حول عالم المركز المحدد، سواء بقطب واحد، او باقطاب متعددة.

5. تغيير أولويات الامن العالمي

نتيجة لمجمل التغيرات السالفة الذكر، فإن العالم الجديد يعيد ترتيب اولوياته، بما يحقق الامن الجماعي المنسجم مع احتمالات نتائج التغيير التي لا تزال حركته دائمة. لقد سيطرت قضايا الامن الدولي وما تعنيه من طبيعة العلاقة بين الدولتين الاعظم خلال الحرب الباردة، وسباق التسلح، واستراتيجية التوتر الدائم الامريكية، واستراتيجية حروب التحرير الوطني السوفيتية، واستراتيجية الردع والتدمير المؤكد المتبادل، وما نتج عنها من اتفاقية سالت (1) ، سالت (2) اتفاقية الصواريخ المضادة للصواريخ عابرة القارات (ABM) .وكانت القضايا الخاصة بالنظام الاقتصادي لا تنال من العملاقين الاهتمام الكافي، مما نتج عنه انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي، على الرغم من ترسانته وقوته العسكرية الكافية على تدمير امريكا والعالم ست مرات. كما ان امريكا المنتصرة بدون حرب عسكرية على الاتحاد السوفيتي، قد خرجت منهارة اقتصاديا، وتعاني من ازمات حادة في الركود وعجز الميزانية والديون... الخ.

ويتجه العالم اليوم إلى الدخول في حربه الرابعة، الحرب الاقتصادية. وقد وضع جانبا اولويات الامن

العسكري لتصبح الاولوية للا من الاقتصادي.. وتحولت السياسة العليا، التي كانت جوهر البرنامج الانتخابي لبوش، إلى ورقة خاسرة في قلب الولايات المتحدة. في حين استطاع كلينتون التركيز على ما كان يعرف بالسياسة الدنيا المتعلقة بالاقتصاد، وتحرير التجارة وتأمين الوظائف، فضمن الورقة الرابحة للوصول إلى المكتب البيضاوي في البيت الابيض.

ويمكن ملاحظة جدول اولويات الامن العالمي من خلال تتبع الحملة الانتخابية في الولايات المتحدة، التي تركزت على مجموعة اخطار تهدد امريكا والعالم. فالى جانب الوضع الاقتصادي كان التركيز على قائمة الموضوعات المتعلقة بالبيئة، وما يحدثه التقدم الصناعي من تغيرات هامة تؤثر على طبقة الاوزون والمساحات الخضراء، ومعدلات المطر والحرارة والمناخ. ناهيك عن التلوث الذي يهدد وجود الكائن البشري. واذا كانت امريكا وهي في مركز صناعة قرار الامن الدولي تعاني ما تعانيه من مخاطر امنية، فان ما ستعانيه الاطراف ودول العالم من هذه المخاطر الامنية ومتغيراته، سيكون له الاثر الكبير على مستقبل وجودها.

وسيكون لتغيرات علاقات الا من داخل المركز آثار مباشرة وغير مباشرة على الا من في الا طراف. وسيكون على هذه الاطراف ان تحدد اولوياتها بالنسبة لامنها القطري او الاقليمي او القومي، بحيث تقلل من تأثير المركز على طبيعة علاقاتها مع محيطها. وقد حدد باري بوزان (25) المتغيرات في جوانب العلاقات بين المركز والاطراف في كل من قطاعات الامن التالية:

أ. الامن السياسي

كانت الا طراف في مرحلة التصارع الايديولوجي بين القطبين الرأسمالي والا شتراكي، تشكل غنائم ايديولوجية لامتلاكها اصول استراتيجية، ودخلت دول جديدة ذات اصول استراتيجية، كما في جمهوريات آسيا الوسطى، لتلعب دورا استراتيجيا مختلفا في بعده الجيوسياسي. وفي النظام العالمي العربي لا توجد جوانب استراتيجية او ايديولوجية تدفع الدول الكبرى إلى الالتفاف لكسب ولاء الاطراف من دول ما كان يعرف بالعالم الثالث. وسيؤدي ذلك إلى فقد تأثير الاطراف على المركز. ومن هنا يمكن القول ان دول عدم الانحياز لم تعد تقدم اي بعد سياسي، يلعب دورا بالنسبة لاعضائها فلم يعد هنالك انقسام حول موقف سياسي، يتم عدم الانحياز له. ومع انهيار الشيوعية وسياسة الحزب الواحد، (وما زال من المشكوك به ان تحقق التعددية نجاحا افضل مما حققته الانظمة الاستبدادية في البنية السياسية غير المستقرة، وغير المبشرة بالخير في كثير من دول العالم الثالث. والنظريات لا تنبئنا بشيء عن المزايا النسبية للنهج الديمقراطي في مقابل النهج الآخر من المراحل الاولى لبناء الدول. وتوجي التجربة بقوة، بأن بناء الدولة مسألة عسيرة وكثيرة المزالق، وتحتاج إلى امد طويل والى استخدام القوة في كثير من الاحيان. وذلك خاصة بالنسبة للبلاد التي لم تقذف الطبيعة عليها خيراتها، والتي جاءت متأخرة إلى مجال وصلت اليه قبلها، الدول القوية في المنظومة الدولية بصورة طبيعية) (26).

وفي افريقيا والشرق الاوسط على الاخص، ربما تجد دول الاطراف صعوبة في الدفاع عن شرعية الحدود التي رسمتها الدول الاستعمارية، والتي لم تتمكن من ان تقوم داخلها دول قادرة على الاستمرار. وقد دارت الحرب الباردة موازية لتعزيز قاعدة عمل قوية ترعرعت في الامم المتحدة، مؤداها ان الحدود بين الدول يجب ان تبقى ثابتة بالشكل الذي وجدت عليه بعد الحرب، وبعد الاستعمار. وزادت هذه القاعدة قوة عندما نشأت منظمة الوحدة الافريقية. وهي الهيئة التي تتألف عضويتها من دول رسمت حدودها القوى الاستعمارية بصورة تعسفية ليس لها مثيل في النظام الدولي. ولا شك ان ما يعانيه الوطن العربي، من

تمزيق وحدود مصطنعة، كرسها الاستعمار منذ سايكس بيكو حتى الآن.

وتشير نهاية الحرب الباردة ان هنالك توجها من القوى الغربية لاحداث التغييرات في حدود الدول، التي كانت في اطار المنظومة الاشتراكية. كما يجري في الاتحاد السوفيتي واوروبا الشرقية، خاصة يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، في الوقت الذي تدعم فيه الوحدة الالمانية والوحدة الاوروبية بشكل عام.

لقد كادت ردة فعل امريكا على محاولة العراق التوحيد مع الكويت، نتيجة لما يعنيه ذلك من تأثير رمزي هائل يوحي بتوحيد العالم العربي. وقد اعتبر هجوما صريحا على الحدود التي نشأت بعد العهد الاستعماري، وما تعنيه من الصحوة القومية والعربية والاسلامية من القدرة على ازالة الحدود، التي ارتبطت بقوة بعمليات التقسيم والاذلال، التي قام بها الاستعمار في الوطن العربي.

ب. الامن العسكري

تراجعت مع انتهاء الحرب الباردة الاهمية الاستراتيجية للقواعد العسكرية في الاطراف. وقل بذلك الحافز إلى استخدام توريد الاسلحة كوسيلة للتقارب الايديولوجي مع الحكومات المحلية. وتسير نهاية الحرب الباردة إلى الحد من المواجهات العسكرية المحلية واعطاء الدول الكبرى دورا للتوفيق بين دول الاطراف المتصارعة. ولكن الاهتمام بالنفط سيجعل الغرب دائم الاهتمام بالشرق الاوسط. ومن النتائج النهائية التي ترتبت عليها نهاية الحرب الباردة، ان تكون هنالك سيطرة على تجارة الاسلحة التقليدية بين المركز والاطراف. ولكن من المرجح ان هناك آليتين قويتين، سوف تستمران في دعم التدفق للقدرات العسكرية إلى بلدان الاطراف.

الآلية الاولى هي التجارة في السلاح، التي يشجع عليها عدد متزايد من الجهات الموردة، بعضها راغب في بيع منتجاته، وبعضها شديد الرغبة في ذلك. وتسود المنافسة التجارية الشرسة سوق السلاح، حيث هي اهم ما تملكه الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتي، وكذلك الصين وتشيكوسلوفاكيا. وهذه الدول مستعدة لبيع اية تكنولوجيا عسكرية، بما فيها الصواريخ البالستية القادرة على حمل رؤوس نووية. وتشكل صفقة الاسلحة التي تحصل عليها ايران من روسيا ومن الدول الاسلامية المستقلة نموذجا واضحا لمسألة التسلح والتعديل والتطوير.

والآلية الثانية، وهي القدرة على تصنيع الاسلحة المتطورة الذي ينتشر في ارجاء العالم. وحيث ان صناعة السلاح لا تنفصل عن الاقتصاد المدني، حيث تتداخل التكنولوجيا والعلم في المجالين، وهذا يعطي دول الاطراف القدرة على تطوير انتاجها في السلاح بما فيها التكنولوجيا النووية التي تجاوز عمرها نصف قرن من الزمان. ومن المتوقع ان يلعب المركز دورا هاما في صياغة الامن العسكري عبر استخدام الشرعية الدولية وتطبيق المادة السابعة من الميثاق. والى ان يتم تغيير بنية مجلس الامن، فانه من المستبعد، خاصة بعد سقوط بوش، ان يلجأ المركز إلى الدخول في حرب عسكرية، وسيستعيض عن ذلك بفرض العقوبات الاقتصادية.

ج. الامن الاقتصادي

إذا كان هنالك معنى واضح للامن الاقتصادي فيما يتعلق ببلدان الاطراف، فهو انما يتعلق بالمعوقات الهيكلية المستمرة الناتجة عن التأخير في التنمية والوجود في الدرجات الدنيا من الثروة والتصنيع.

وسيزداد وضع الاطراف سوءا بسبب الاستمرار في انخفاض اسعار السلع الاولية وازدياد اختلاف المصالح بين البلدان النامية. وتحتاج استراتيجيات المركز القائمة على فرق تسد، واحتدام مشكلة الديون وفقد الميزة النسبية الناتجة عن رخص القوة العاملة في مواجهة التكنولوجيا الاوتوماتية الذكية في البلدان الصناعية المتقدمة.

وقد يؤدي تخلخل القوى السياسية داخل المركز إلى نشوء سلسلة من الدوائر الاقتصادية الاقليمية تتمحور حول اوروبا واليابان وامريكا الشمالية، وسيؤدي تناقص المعونات الاقتصادية إلى تفاقم الاوضاع في الاطراف، مما سيؤدي إلى موجات من الهجرة غير المرغوبة، ويدفع دول المركز إلى الاستمرار في دفع المعونات الاقتصادية.

د. الامن الاجتماعي

يتعلق الامن الاجتماعي بالاخطار ونقاط الضعف التي تؤثر في انماط هوية المجتمعات وثقافتها. وتشكل مشكلة الهجرة ومسألة التصادم بين الحضارات المتنافسة القضيتين الابرز في العلاقات بين المركز والاطراف. فالهجرة تهدد هوية وثقافة المجتمعات المحلية، بما تحدثه من تغيير في التركيب العرفي والثقافي والديني واللغوي للسكان. وتواجه الهجرة بداية بالترحيب، ولكن ضمن حدود معينة، ولكن الهجرة غير المقيدة تشكل خطرا على الثقافة القائمة، بما يجعلها مصدر خطر على الامن الاجتماعي.

وهنالك الآن الكثير من المهاجرين من الاطراف إلى دول المركز. وحيث ان وسائل النقل تسهل عملية الانتقال، ومع ازدياد الحوافز الاقتصادية للعاطلين عن العمل في بلدان الاطراف، ومع حاجة دول المركز إلى الايدي العاملة الرخيصة، فإن عملية الهجرة تندفع كاسحة امامها لك قيد، بما فيها خطر الموت نفسه، كما اثبت ذلك مهاجرو الزوارق الفيتناميين.

وتظهر مشكلة الهجرة في ساحات التصادم بين الهويات الحضارية المتنافسة بين الغرب ومجتمعات الاطراف، ويتحرك الخطر في معظم الاحيان في الاتجاه المضاد اي ان الكراهية تتجه من المركز إلى الاطراف. وكما نشاهد الآن في المانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها من الدول، التي ينشد اليها المهاجرون. حيث بدأت موجة العنف المعادي للغرباء، وتحت شعارات مختلفة، ووصلت إلى حد بعث الروح النازية والفاشية من جديد.

ويشكل التصادم بين الغرب والاسلام خاصة بعد حرب الخليج والعدوان الغربي على العراق مشكلة قائمة. فقد خلف هذا العدوان على الرغم من اقحام بعض العرب والمسلمين فيه شكلياً، مخزوناً هائلا من المشاعر الحاقدة والمعادية للغرب وخاصة لبريطانيا وامريكا. وهذه المشاعر التي يسهل تغذيتها، لا بد ان يؤدي التوتر الناتج عنها إلى تضخيم مسألة الهجرة، مما سيؤدي إلى الاحتكاك بين المجتمعات الاسلامية المهاجرة والمجتمعات المضيفة لها. ومن شأن حرب باردة اجتماعية، ان تعزز الهوية الاوروبية من جميع نواحيها في الوقت الحاسم في عملية الوحدة الاوروبية. وربما يبرز رأي واسع الانتشار في الغرب، ليس على استعداد لتأييد شن حرب باردة اجتماعية على الاسلام بل وللأخذ بسياسات تشجع على ذلك.

هـ. الامن البيئي

يمكن التعبير عن تأثير قضايا البيئة على الامن عندما تصبح هذه القضايا ذات خطر يهدد معيشة

البشر على نطاق واسع. فالبلدان المعرضة للغرق نتيجة لحدوث بسيط في مستوى سطح البحر، والفيضانات التي اصابت بنجلاديش، والاعاصير التي تجتاح الكثير من بلدان العالم كلها، تشكل قضايا بيئية في اطار الامن الدولي. كما تدخل في هذا الاطار كل المسائل التي تحدث تغييرات جوهرية في حركة الغلاف الجوي، كما هو الحال بالنسبة لانشطة انبعاث غازات الدفيئة او كيماويات من نوع كلورفلوركربونات (CFC) التي تبدد طبقة الاوزون الواقية للارض، او الانشطة الاستغلالية المحدثة للتلوث، التي تهدد بالحد من توافر الاكسجين في الهواء الجوي نتيجة قتل الغابات والعوالق (البلانكتون).

وهنالك عدد كبير من بلدان الاطراف معرضة للفناء الفعلي نتيجة لاستمرار الجفاف والتصحر، وما نتج عنهما من تهديد للامن الغذائي، ويشاهد العالم من مناظر مأساوية في الصومال، ترمز إلى الحضيض الذي انحدرت اليه البشرية.

ويمكن ان يدرج في اطار الامن البيئي بعض المخاطر التي تواجه البشرية كأمراض مستعصية مثل مرض نقص المناعة والسرطان، وهو ما يمكن ادراجه تحت عنوان الامن الصحي، وهو ما يشمل ايضا خطر المخدرات وانتشارها.

من الواضح ان الامن البيئي سيلعب دورا هاما في شد انظار المركز نحو الاطراف. وسيكون الحفاظ عليه احد مصادر اهتمام المركز بهذه الاطراف درءا للاخطار التي قد تحيق بالبشرية جمعاء في حالة الاستهتار بالامن البيئي، الذي يتسم بطابع الكلية والشمولية لبيئة كوكبنا الارض. الذي قد يعمد إلى نشر مصانعه في مناطق بعيدة عن مواقع حضارته. وسيكون للامن المائي دوره الهام في المرحلة القادمة. حيث ان النقص في امدادات المياه، وخاصة في بعض المناطق الكثيفة السكان، مثل منطقتنا، قد يؤدي إلى مشاكل اقليمية تجر إلى منازعات وحروب ساخنة. ولا شك ان قضايا البيئة ستزداد اهمية، وستعرض نفسها على الامن الدولي بشكل واضح.

رابعا: النظام العالمي الجديد

دخل شعار "النظام العالمي الجديد" قواميس السياسات الخارجية لمعظم دول العالم منذ آب 1990. بعد ان اعلن بوش امام الكونجرس، ان هذا النظام سيبدأ بالتكوين مباشرة بعد الانتهاء من ازمة الخليج. وقد اثار هذا الشعار، ولا يزال يثير العديد من النقاشات والتحفظات في واشنطن نفسها كما في العام بأسره. والجميع يتساءل عن مضمون هذا النظام، خطوطه العامة، تركيبه، ودور الولايات المتحدة فيه.

وقد حاول بوش في مناسبات متعددة اعطاء بعض التفسيرات لما يعنيه شعار "النظام العالمي الجديد"، الا انه لم يتجاوز العموميات، كما يقول دان ايرودروف في (الواشنطن بوست في 26 أيار 1991). وهذا ما حدا بالسيدة جين كيرك باتريك، مندوبة الولايات المتحدة السابقة في الامم المتحدة، بالقول في سياق انتقادها لسياسة جورج بوش الخارجية: (ان الرئيس الامريكي يواجه مشكلة اساسية فيما يتعلق

بالسياسة الخارجية، وهي نفس المشكلة التي تطال اكثر من جانب من جوانب الادارة الحالية، انها تتعلق بالفشل، في الافصاح عن الهدف المراد تحقيقه). (الواشنطن بوست 16 آذار).

ولكن هذا الفشل في الاعلان عن الهدف لا ينبع من عدم معرفة ما يريده بوش او ضبابيته، فقد اضطرت الادارة الامريكية ان تفصح عن بعض ما تريده امام الكونجرس، وذلك لتأمين الموازنة اللازمة لمشروع النظام العالمي الجديد، الذي تشكل في ذهن بوش، مع انتهاء الاتحاد السوفيتي، وسيطرته المطلقة على مجلس الامن، وادارته للتحالف الثلاثيني ضد العراق، واخضاعه العملاقين الاقتصاديين اليابان والمانيا لمشيئته العسكرية. لقد اضطرت ادارة بوش ان تطلع الكونغرس الامريكي على تقريرين سريين اعدهما البنتاجون يحددان الاستراتيجية العالمية الامريكية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة. وذلك لانتزاع موافقة الكونغرس على ميزانية وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) للعام 1992-1993. وقد نشر باتريك تيلر مقتطفات من التقرير الاول وهو بعنوان "السيناريوهات السبع القاتلة" في الهيرالدتربيون في 18 شباط 1992 وأشار إلى ان التقرير الذي اعد مسودته الاميرال جيراميا مساعد رئيس الاركان كولن باول، يقع في سبعين صفحة. ففي اول خطة عسكرية مفصلة لما بعد الحرب الباردة. حدد البنتاجون سبع سيناريوهات في المواجهات الاجنبية المحتملة، التي تفرض على الولايات المتحدة خوضها خلال السنوات العشر القادمة.

تكشف الوثيقة السرية الاولى، ان وزارة الدفاع قد اعطت تعليماتها للقادة العسكريين لطلب القوات والاسلحة اللازمة الكافية لخوض حروب اقليمية كبيرة في سيناريوهين ضد العراق وكوريا الشمالية. وسيناريو ثالث ضد الدولتين في وقت واحد. ويتوقع السيناريو الرابع مواجهة عسكرية في اوروبا لمنع روسيا من التطلع لاهداف توسعية. وفي السيناريوهين ضد العراق وكوريا الشمالية. وسيناريو ثالث ضد الدولتين في وقت واحد. ويتوقع السيناريو الرابع مواجهة عسكرية في اوروبا لمنع روسيا من التطلع لاهداف توسعية. وفي السيناريوهين الخامس والسادس، تقول الوثيقة، ان على الولايات المتحدة الامريكية ان تكون جاهزة للرد على مفاجآت من نوع انقلاب في الفليبين، الذي يهدد حياة خمسة آلاف مواطن امريكي، او محاولة ارهابية انقلابية ضد حكومة بنما، التي من شأنها ان تهدد الوصول إلى قناة بنما.

وفي السيناريو السابع، تدعو الوثيقة إلى ردع "منافسات عدائية" قد تنبعث مؤخرا في هذا العقد، او "تحالف عالمي ذي طابع امني عدواني توسعي"، ويتحدث التقرير بعد ذلك عن الموازنات اللازمة لهذه السيناريوهات.

إن التقرير النهائي الثاني، وهو الاكثر خطورة واهمة، فقد نشر باتريك تيلر مقتطفات منه في نيويورك تايمز 8/3/1992 وفي الهيرالد تربيون في 9/3/1992 واشار إلى ان التقرير الذي يقع في 46 صفحة، قد اشرف على وضع مسودته بول وولفوتز، السكرتير المساعد في وزارة الدفاع الامريكية. وقد تم تزويد جريدة النيويورك تايمز بالتقرير السري من خلال مسؤول، يعتقد ان النقاش حول استراتيجية الحرب الباردة، يجب ان يجري على مستوى الرأي العام.

وقد جاء في فقرة الافتتاحية ان النصر الاقل وضوحا هو "تكامل اليابان والمانيا في نظام أمني تقوده الولايات المتحدة، وخلق منطقة سلام ديمقراطية". وقد استمرت هذه الاستراتيجية تظهر بوضوح في استعداد البنتاجون لاستخدام قواته المسلحة لمنع انتشار الاسلحة النووية واسلحة الدمار الشامل في دول مثل كوريا الشمالية والعراق ودول الاتحاد السوفيتي سابقا واوروبا.

وتشير الوثيقة إلى ان انتشار الاسلحة النووية قد يغري المانيا واليابان وغيرهما من الدول الصناعية للحصول على اسلحة نووية لردع اعدائها الاقليميين. وقد يؤدي هذا إلى تنافس كوني مع الولايات المتحدة، والى نشوء ازمة مصالح قومية وتهديدات عسكرية.

وتحاول الوثيقة تعديل دور الترسانة النووية للولايات المتحدة (تشكل قوتنا النووية رادعا هاما لأي تحد او تهديد كوني غير منظور، وفي نفس الوقت تساعد على ردع استخدام طرف ثالث لاسلحة الدمار الشامل.

وتتطلع الوثيقة إلى ترتيبات امنية دولية، تضمن اعادة تسليح المانيا واليابان، خاصة بالاسلحة النووية.

(وحيث ان النظام العالمي المدعوم كليا من الولايات المتحدة، فإن على الولايات المتحدة ان تتصرف منفردة عندما يتعذر وجود تحرك جماعي).

وتؤكد الوثيقة (ان الوجود الامريكي الفعال في اوروبا، والتلاحم المستمر مع حلفائنا الغربيين يبقى امرا حيويا. وعلينا ان نمنع نشوء اي ترتيبات امنية محضة من شأنها ان تنسف حلف شمال الاطلسي NATO).

وبالنسبة لشرق آسيا تشير الوثيقة، إلى انه يمكن للولايات المتحدة التقليص من قواتها، ولكن عليها المحافظة على (وضعها كقوة عسكرية من الدرجة الاولى في المنطقة، وذلك ليتسنى للولايات المتحدة ان تستمر في المساهمة في الامن الاقليمي والاستقرار بالتصرف كقوة توازن وتمنع حدوث فراغ او هيمنة اقليمية).

وتشير الوثيقة إلى ان تفكك المؤسسة العسكرية السوفيتية السابقة، قد ازال قدرة اي قوة وريثة من شن حرب تقليدية عالمية. ولكن الوثيقة اشارت بأنها _لا تستبعد الخطر على الاستقرار في اوروبا نتيجة ردة قومية في روسيا، او محاولات لاعادة روسيا ضم جمهوريات اوكرانيا وبيلوروسيا المستقلة حديثا وغيرها).

وحول خطة الولايات المتحدة الامريكية بشأن الاسلحة النووية في دول ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، تشير الوثيقة إلى (ترحيبها بالتطورات التي تحصل في الدول المستقلة).. (ويجب ان تستمر باعتبار الاخطار التي مثلها القادة الروس حاليا ومستقبلا، حيث ان روسيا تبقى هي القوة الوحيدة في العالم القادرة على تدمير الولايات المتحدة).

والى ان تصبح القوة الروسية النووية غير مؤذية، تقول الوثيقة: (علينا الاستمرار في مواجهة احتمال وقوع القوات النووية الاستراتيجية في ايدي اولئك المرتدين لانظمة عدوانية دكتاتورية مغلقة). وتنادي الوثيقة بضرورة الاسراع في اقامة نظام عالمي ضد الصواريخ عابرة القارات.

من الواضح ان هذه الخطوط العامة الواضحة التي حددتها ادارة بوش، تعبر عن مفهومه ومفهوم ادارته لطبيعة النظام العالمي الجديد، الذي يطمحون لتحقيقه. ولكن اهم المشاكل التي تواجه هذا المشروع هو متطلباته المادية، في وقت تعاني فيه الولايات المتحدة من ازمة اقتصادية خانقة وتراكم الديون الداخلية والخارجية، جعلت الكثيرين من اعضاء الكونغرس ينتقدون المشروع المقترح باعتباره مكلفا بما لا تقتضيه الضرورة. فالمشروع يهدف إلى هيمنة الدور الامريكي، كما تشير الوثيقة، ويحاول وضع تفاصيل لقوة القاعدة Base force لادارة بوش بالدعم بمليون وستمائة الف عسكري خلال السنوات الخمس القادمة،

بتكاليف تعادل الف ومائتين بليون دولار (1.2$ trillion). وهذا ما جعل الكثيرين من اعضاء الكونغرس الديمقراطيين، ينتقدون المشروع المقترح باعتباره مكلفاً بما لا تقتضيه الضرورة (27).

لقد اثار مشروع النظام العالمي الجديد، كما كان يراه بوش، نقاشات حادة. فانحاز كثيرون إلى دعمه وعارضه آخرون بشدة. وبدأ النقاش يتوجه نحو تحديد البدائل الممكنة لصورة نظام ما بعد الحرب الباردة.. ويمكن تلخيص البدائل المقترحة على الشكل التالي:

أ. نظام أمريكا فوق الجميع.

وهذا الخيار هو ما عبرت عنه الخطوط العامة لمشروع بوش، والتي جاءت تفصيلياً في تقريري البنتاجون السالفة ذكرهما. وينطلق المشروع من هيمنة قطب واحد على العالم، هو امريكا، الا قوى عسكريا.. ولاعتبارات اقتصادية فإن جناحي هذا النظام لا بد ان يستمدان قوتهما الاقتصادية من نظامين قزمين عسكرياً، ويتمتعان بقدرات اقتصادية متطورة. انه اشبه بنظام البلطجة تحت شعار حماية الديمقراطية، وحقوق الانسان، والشرعية الدولية. ومثل هذا النظام الذي شاهد حماية الديمقراطية، وحقوق الانسان، والشرعية الدولية. ومثل هذا النظام الذي شاهد العالم مقدماته، وكيف يوظف الشرعية الدولية بمكيالين حسب مصالحة الخاصة ضد العراق، حيث لا بد من تطبيق قرارات مجلس الامن بالقوة. وضد فلسطين حيث يتم تفسير قراري مجلس الامن الدولي 242، 338 بما يخدم مصلحة العدو الصهيوني.

ولهذا المشروع من النظام العالمي الجديد انصاره في الولايات المتحدة ويتمثلون اساساً في المؤسسة العسكرية الامريكية، المستفيد الاول من هذا النظام، الذي يقوم على ركيزتين اساسيتين:

الاولى: تفرد امريكا بقيادة العالم.

الثانية: تأمين القوة العسكرية الامريكية الاستراتيجية اللازمة لهذا التفرد.

ويحرص دعاة نظام امريكا فوق الجميع في تدعيم وجهة نظرهم بأنهم على قناعة تامة، بأن اي صراع مهما كان حجمه او مكان حدوثه في العالم، سيؤدي في النهاية إلى حرب اشمل وأوسع بحيث تجد الولايات المتحدة نفسها مقحمة في هذا الصراع. وان عليها دائما ان تتخذ خطوات صلبة وجادة ومباشرة ضد اي عمل عدواني، من اجل تكريس النهج الديمقراطي في العالم، كما يدعون. ونتيجة لاقحام القيم الديمقراطية ومسألة انتشارها في العالم في صميم النظام العالمي الجديد، فإنها اصبحت إلى جانب الامن والاستقرار دعائم اساسية لدعاة نظام امريكا فوق الجميع. ويعتقد تشارلز كروماتر، احد غلاة الدعاة لهذا النظام، (بأن الاستقرار والهدوء في العالم يجب ان تفرضه الولايات المتحدة بالاعتماد على امكانياتها الخاصة. وقد يتطلب ذلك انشاء قوانين وانظمة عالمية جديدة، قد يكون من بينها خلق كيانات شبه مستقلة ومنفصلة عن الدول الاصلية، كما يجري في يوغسلافيا وتشيكسلوفاكيا، او كما هو الحال مع الفلسطينيين، او كما حصل في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فإن على الولايات المتحدة ان تضع الاساس للنظام العالمي الجديد). (28) يؤكد كروماتر ان الامل الوحيد في هذا العالم المشحون بالمشاكل والمصاعب، هو ان تحتفظ امريكا بتفوقها وبرغبتها لاستعمال تلك القوة من اجل اثبات قدرتها على قيادة العالم وادارته.

وقد اكد كروماتر في تعليقه على مشروع البنتاجون، بأنه يراه (مؤشراً قوياً على مقدرة امريكا في

الحفاظ على سيطرتها العسكرية على العالم. وبالتالي منع اي قوة من البروز والمنافسة مستقبلا وخاصة اليابان والمانيا). (29)

ويمكن القول ان نظام امريكا فوق الجميع.. نظام بوش العالمي الجديد قد تجاوزته نتائج الانتخابات الرئاسية في الثالث من نوفمبر الماضي.. واصبح جزءا من التاريخ العدواني للرئيس المهزوم جورج بوش.

ب. نظام.. أمريكا اولا.

لا يحتاج الانسان للتفكير طويلا لتحديد من يمثل هذا الاتجاه، فقد حسم ذلك الشعب الامريكي بانتخابه بيل كلينتون. ولكن لا بد من ان نشير إلى ان من اهم دعاة هذا الاتجاه، المرشح "باتريك بيوكانان" الذي نافس بوش داخل الحزب الجمهوري على الترشيح للرئاسة. ولا تقوم سياسة دعاة هذا النظام على الدعوة للانعزال وابعاد امريكا عن المسرح الدولي. وانما يهدفون إلى الاهتمام بالوضع الداخلي وبمصلحة الشعب الامريكي الاجتماعية والاقتصادية وجعلها في سلم الاولويات. وقد عبر بيوكانان عن هذا الاتجاه، بأن الانفراد في اتباع استراتيجية مستقلة ليست المشاركة في تحمل الاعباء، كما انها ليست نوع من الانعزالية. وان على الولايات المتحدة ان تحافظ على علاقاتها القوية السياسية والثقافية والاقتصادية مع بقية دول العالم (30). ويرى دعاة هذا النظام ان على الولايات المتحدة ان تحتفظ بقوة عسكرية، اذا ما نشب اي تهديد للمصالح الامريكية في العالم. ويطلبون بإعادة النظر في الاحلاف العسكرية القديمة كحلف الناتو، ويرفضون ان تمارس الولايات المتحدة دور الشرطي العالمي، ولا يعتقدون ان هذه دعوة للانعزالية وادارة الظهر كما يدعي بوش.

ويرى جوزيف ناي، احد المنظرين لاعادة النظر في السياسة الخارجية الامريكية على اتهام بوش له بالانعزالية، بأن هذا ليس سوى محاولة فاشلة لتجنب البحث في حقيقة الدور الامريكي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة (31).

ومن الواضح ان ما يجري في العالم بعد الحرب الباردة، هو غياب حالة التنافس الحاد، التي كانت سائدة. وان كل دولة من الدول الكبرى تعمل على ترتيب اوضاعها، بحيث يؤهلها ذلك لاحتلال موقع جيوبولوتيكي، يؤهلها للتنافس مع الدولة العظمى الوحيدة. ويدرك دعاة نظام امريكا اولا.. ان على الادارة الجديدة، برئاسة كلينتون ان تعمد إلى خلق نظام عالمي بدون هيمنة.. وعلى امريكا ان لا تتحسس من ظهور قوى اخرى متنافسة تشكل معها تحالفاً دولياً، يمنع الصراع الساخن ويجيز التنافس في المجالات الاقتصادية، الساحة الرئيسة للحرب الباردة الجديدة، والتي بدأت بوادرها تطل مؤخرا في اتفاقية "الجات".

وستجد الحرب الاقتصادية الباردة مجالا وارضاً خصبة في المستقبل. ويمكن انفجارها ساخنة ان يحولها إلى عسكرية. لذلك لا بد من ان يوضع اسس للنظام العالمي الجديد، الذي تشارك فيه الولايات المتحدة بوصفها قطبا اقتصاديا من اقطاب آخرين، بعيدا عن استخدام القوة العسكرية، لاغراض تجارية واستعمارية جديدة.

ج. نظام.. اللانظام العالمي الجديد: "New World disorder"

يمكن القول ان النظام المتعدد الاقطاب، الذي يؤيده دعاة نظام امريكا اولا.. وحتى نظام امريكا فوق

الجميع.. يظلان يمسكان بقواعد لعبة السياسة العالمية سواء بالنسبة للعلا قات مع الا مم المتحدة ومؤسساتها او مع المنظمات الدولية الاخرى، والتكتلات الاقتصادية او الاقليمية.. الخ. وفي حالة انتفاء وجود الاقطاب يصبح احتمال وقوع العالم في حالة فوضى سياسية تؤدي إلى انتفاء النظام العالمي برمته، وتسود العالم حالة "حارة كل من ايده اله".

هذه الصورة لمستقبل العلاقات الدولية قد يراها البعض مستحيلة.. مقدماتها بادية للعيان على مستوى مصغر، لما يجري امام سمع العالم وبصره في الصومال وفي البوسنة والهرسك.. حيث اذا ما جسمنا صورة عالم الفوضى سنراه تحت المجهر كما نرى الصومال الآن وما تعانيه من انعدام لابسط معايير النظام. ان عجز الدول الكبرى او الكتل الاقليمية على حل مشاكل وتناقضات شعوب ما كان يعرف بالعالم الثالث، ونتيجة لتأجيج المشاعر القومية والعرقية والاثنية والدينية والطائفية، وتحول هذه المشاعر إلى احقاد تعبر عن نفسها من خلال نزعات فاشية، فإن مراكز القوى العالمية قد تقف عاجزة عن حل هذه المشاكل، نتيجة عدم اتفاقها على طريقة محددة لذلك. او قد تجد نفسها مشتبكة مع بعضها البعض في حرب عالمية جديدة، نتيجة اختلال موازين القوى بين الكتل الدولية الكبرى، وتغليب التناقضات والمشاكل فيما بينها، على عوامل الوحدة والتجانس والمصلحة المشتركة.

وهنالك مناطق كثيرة في العالم مؤهلة ان تسودها الفوضى كما يجري الآن فيما كان يعرف بيوغسلافيا، ويعتقد جيمس شليسنجر وزير الطاقة الاسبق في ادارة كارتر، ان العالم يتجه خلال ما بعد الحرب الباردة، لان يكون اقل استقرارا مما كان عليه طيلة فترة تنافس القوميتين الاعظم. وهو يستبعد ان يؤدي النظام الجديد إلى حالة استقرار، بل ان العالم سوف يشهد فترة اشبه ما نكون بحالة الاوضاع العالمية قبل الحرب العالمية الثانية، حيث سادت حالات التنافس والتناحر بين القوميات المختلفة. كما يجري الان في يوغسلافيا وبلاد القوقاز وتشيكسلوفاكيا واماكن اخرى متعددة في ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي سابقا. ويلخص شليسنجر بنظرة متشائمة لمستقبل الوضع العالمي فيقول: "ان استقرار العالم الذي تقوده امريكا في الوقت الحاضر، هو اقل مما كان عليه ايام الحرب الباردة. لقد كان الانتصار في الحرب الباردة كبيرا. ولكن اذا سارت امريكا إلى ابعد من ذلك، فإن عليها ان تتذكر ان ذلك الانتصار هو مقدمة لكل المشاكل، التي قد تحدث في العالم مستقبلا). (32)

ويعتقد شليسنجر ان منطقة الشرق الا وسط لا زالت تشكل مصدرا للانفجار الذي يهدد الا من والا ستقرار، ويضعف بالتالي اي تقدم بإتجاه بناء نظام عالمي جديد. ويشير إلى ان قضايا مثل الديمقراطية والفساد الاقتصادي والتوزيع غير العادل للثروات والمسألة الفلسطينية، تساهم جميعها في رسم صورة حذرة، وغير متأكدة مستقبل المنطقة. واشار الى ان الخوف من حالة فقر ودمار اقتصادي قد يعم دول بأكملها مما يهيئ كل المقدمات اللازمة لنشوب حالة من الفوضى. وانه اذا لم تثمر الجهود الامريكية لتحقيق تسوية سلمية للصراع العربي-الاسرائيلي، فإن المنطقة ستغرق في حالة عدم استقرار لا حد لها. ونظرا لعدم الوضوح بالنسبة لمستقبل الشرق الاوسط، فإنه يتحتم على الولايات المتحدة ان تواصل تواجدها المادي الملموس ولفترة طويلة جدا. لان ذلك هو "الضمانة الوحيدة لحماية المصالح الامريكية" وبالتالي حماية المنطقة من اي تهديد محتمل، سواء من ايران او من اي طرف آخر. (33).

د. نظام.. الواحد للجميع.. والجميع للواحد

انطلاقا من التغيير، الذي طرأ على اولويات الامن العالمي، بحيث اصبح الامن الجماعي لا يقوم على علاقات القوى العسكرية وتوازناتها، بل على العكس اصبحت القوة وسوء استخدامها مصدر تهديد. يصبح

التطلع نحو نظام عالمي تحكمه قواعد العدالة والسلام امرا ملحا بالنسبة لبني البشر كافة. ومواجهة الحكم الطوباوي المثالي، الذي يوحي به هذا التطلع، يواجه سلسلة من العقبات، التي تحول مرحلة ما بعد الحرب الباردة دون الاستمرار في هذا التطلع. ويمكن القول، انه في حالة تطور وتكامل الاسس الانسانية المشتركة في ظل نظام متعدد الاقطاب، يستعد لمواجهة مجموعة المشكلات ذات الصفة العالمية مثل مشكلة البيئة، والامراض الوبائية، ومشكلات الانفجار السكاني والهجرة، وهو ما يشمله الامن الاجتماعي والامن البيئي والامن الثقافي، والامن الغذائي والامن المائي والامن الصحي.

وتتوقف امكانية الوصول إلى مثل هذا النظام على امكانية ان تأخذ الامم المتحدة ومؤسساتها العالمية دورا كبيرا في حل المشاكل الاقليمية، بحيث يصبح حل المشاكل بالقوة امرا مرفوضا. وتدرك دول العالم ان التمسك بميثاق الامم المتحدة ومبادئ القانون الدولي هو الضمانة الوحيدة للحفاظ على الامن العالمي في ظل نظام عالمي، يشارك فيه الجميع ويسوده شعور التآلف والتعاطف كمثل الجسد الواحد، وشعاره الانساني هو الواحد للجميع، والجميع للواحد.

خامسا: الامن القومي العربي..

مصادر التحدي وخيارات المواجهة

1. مصادر التحدي

لقد واجهت امتنا العربية.. ولا تزال، الهجمة الاستعمارية التي استهدفتها منذ ان وضعت قوانين الاستعمار قيد التطبيق، ويحدد قانون السيطرة الاستعماري طبيعة التهديدات الامنية، التي تواجه الامة العربية. فالاحتلال المباشر الذي اتخذ شكلا استيطانيا توسعيا على ارض فلسطين وامتد إلى مساحات اخرى من الوطن العربي، ويحاول التجذر في الارض تطلعا نحو مشروعه التلمودي "اسرائيل الكبرى"، وهذا هو التحدي الاكبر والاخطر للامن القومي العربي..

ونتيجة لمحاولات القوى الامبريالية والاستعمارية زرع وتكريس الكيان الصهيوني في قلب الامة العربية، تكرست التجزئة وهي التحدي الثاني الذي يهدد الامن القومي العربي، خاصة وان تجذير هذه التجزئة يتكرس من خلال الصراعات المستمرة والمفتعلة في كثير من الاحيان بين الاقطار العربية المتجاورة، لاسباب سياسية او خلافات عقائدية او حول الحدود، مما يكرس التجزئة باثارة النعرة الاقليمية، ويساهم في جعل الحدود المصطنعة هدفا ينبغي الدفاع عنه، بدلا ان تكون للازالة على طريق الوحدة العربية الشاملة، التي تحقق الامن القومي العربي وتصونه.

ويظهر التحدي الثالث للامن القومي العربي في ابشع اشكاله، عندما يمتد المشروع الامبريالي الصهيوني بغية احداث المزيد من التجزئة والتفتيت في داخل حدود التجزئة نفسها. ويبدو ذلك جليا في

اثارة النعرات الطائفية والدينية والعرقية، بحيث اصبحت الحدود التي وضعها الاستعمار هدفا لتحقيق الوحدة الوطنية في اطارها..

أما المظهر الرابع للتحدي العربي فينتج عن التوتر المستمر في العلاقات، الذي يصل إلى مصادمات مسلحة وحروب طويلة بين الدول العربية وجيرانها من الدول غير العربية، والتي هي في معظمها دول اسلامية، كما هو الحال في ايران، وتركيا، وتشاد، والسنغال، واثيوبيا... الخ. ويواجه الامن القومي العربي مظهرا من مظاهر التحدي على المدى الطويل، قد يراه البعض مظهرا ايجابيا للامن القومي العربي ولكن الحقيقة انه الوجه الآخر لعملة التجزئة القطرية والتفتت الطائفي. وهذا المظهر يتجسد فيما يدعى مجالس التعاون الاقليمية، التي تقسم العالم العربي إلى مجموعات اقليمية متلاصقة جغرافياً. وهذه الفكرة تنطلق من المحاولة الغربية لانكار وجود العالم العربي الواحد وقد ظهرت الفكرة قبل قيام الجامعة العربية، وحاولت تكريس وجود اربعة عوالم لكل منها خصوصية.

الاول: هو عالم شبه الجزيرة العربية ومفتاحه الرياض.

الثاني: هو عالم الهلال الخصيب ومفتاحه دمشق.

الثالث: هو عالم وادي النيل ومفتاحه القاهرة.

الرابع: هو عالم المغرب العربي ومفتاحه الرباط.

وقد تم تعليب هذا التحدي ووضعه على الرف خلال قيادة جمال عبد الناصر للامة العربية. ولكن الفكرة عادت بعد كامب ديفيد وبعد انعزال مصر عن العالم العربي..

وكما يقول محمد حسنين هيكل، (بعد سنوات طويلة اذا الفكرة تعود وتطرح نفسها. ثم يجري تقديمها للامة العربية، وكأنها الاستجابة المطلوبة لدواعي التغيير المنشود، وكان الامر في جوهره مختلفا.. فالعالم العربي الجائع إلى تفكير جديد. لم يجد امامه غير فكرة معلبة انتهت مدة صلاحياتها من سنين طويلة.. وراح يمضغ.. ويبلع). (34)

وقد أضيف لمظاهر تحدي الامن القومي العربي مظهر سادس، وهو الانقسام الذي حصل نتيجة حرب الخليج. ففي الوقت الذي كانت المجموعة الحية من الامة العربية ترى ان المشكلة يجب حلها في اطار الجامعة العربية، وهي ما تم التعارف على تسميتها مجموعة الحل العربي، انساقت مجموعة اخرى تحت الترغيب والترهيب إلى الاستجابة للمخطط الامريكي العدواني، الذي يؤيد التدخل الامريكي الاطلسي وقدم غطاء لعودة الاحتلال السافر للجزيرة العربية، ولضرب القوة العسكرية العربية الاولى في العراق، وذلك خدمة واضحة ومجانية للكيان الصهيوني، الذي هو التحدي الاكبر للامة العربية. ويواجه المظهر العربي مظهرا سابعاً هو في حقيقته اغلاق لدائرة التحديات، باتصاله المباشر بالتحدي الاول للكيان الصهيوني.. وهذا المظهر هو ما تسميه امريكا مشروع السلام، والذي ابتدأ بخطاب بوش في 6 آذار 1991 بعد حرب الخليج، والذي اعتبر مبادرة للسلام. وتبع ذلك جولات مكوكية قام بها وزير خارجيته بيكر من اجل ترتيب المخطط الاخطر ضد الامة العربية.

وتمخضت جولات بيكر عن وضع اسس لمؤتمر مدريد، تنطلق اساسا من انه لا يوجد احد في المنطقة

يستطيع ان يقول لا.. للسيد الامريكي.. هذا اولا.

وان الدول التي وقفت في مجموعة الحل العربي عليها ان تغير موقفها والا فإنها ستعاقب، وهذا ثانيا. وان دور الاردن الهام في عملية السلام الامريكي يبرر معاملته بما يخدم مصلحة المخطط.. خاصة اذا استطاع ان يشكل مظلة للوفد الفلسطيني، يتم من خلالها ابعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن المشاركة مباشرة في علمية السلام وهذا ثالثا.

أما رابعاً، وهو ما يتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية.. فالمخطط يعتبر تصفيتها ضرورة لمسيرة السلام، حيث انها تمثل الهوية الوطنية المستقلة للشعب الفلسطيني، والتي تعني مشاركتها الاعتراف باهدافها في الحرية والاستقلال الوطن والدولة المستقلة. وهو الامر الذي يحول دون مشاركة الكيان الصهيوني في العملية.

أما العراق فله مخططه الخاص خارج موضوع مسيرة التسوية.

يقوم المخطط المؤامرة على اربعة ركائز اساسية اعتمدتها ادارة بوش. وهي تنسجم مع المخطط الذي وضعه مجموعة الصهاينة في تقرير "البناء من اجل السلام Building for Peace ، ويهدف المخطط إلى تحقيق الاذعان العربي الشامل للعصر الصهيوني ولتحقيق "اسرائيل الكبرى".

تقوم الركيزة الاولى على اعادة الاعتبار للحركة الصهيونية باعتبارها حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي. وبهذه الركيزة تحقق الحركة الصهيونية شرعية عدوانها الغاشم على الامة العربية من جهة، وتدين التصدي والنضال العربي الذي واجهها وتصدى لها من جهة اخرى. كانت العقبة في وجه امريكا تتمثل بقرار الجمعية العامة للامم المتحدة الصادر في العاشر من نوفمبر 1975 والذي يدين الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية. وقد بذلت امريكا جهدا كبيرا في تجميع الاصوات من الجمعية، لكي تلغي قرار ادانة الصهيونية من جهة، ثم ترد لها الاعتبار بوصفها حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي من جهة اخرى. وعلى الرغم من كل الجهد الذي بذلته امريكا وحلفاء حفر الباطن لتحقيق هذا الهدف، فقد عجزت امريكا عن تجميع الاصوات اللازمة لاعتبار الصهيونية حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي، حيث لم توافق مع امريكا على مشروع القرار سوى 76 دولة وهذا العدد لا يكفي لاصدار القرار. فاكتفت مرحليا بالاصوات التي جمعتها لالغاء القرار السابق للجمعية العامة الذي يدين الصهيونية، حيث استطاعت ان تحشد لمشروع هذا القرار 110 صوتاً. وقد ساهمت دول عربية ودول اسلامية في التواطؤ مع السياسة الامريكية، على الرغم من القرار الذي اتخذ في المؤتمر الاسلامي في داكار، بادانة التحركات لتبرئة الصهيونية، وبالتأكيد على قرار الجمعية العامة بإدانتها.

أما الركيزة الثانية.. وهي النقيض للاولى فهو تحقيق ادانة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها حركة ارهابية، وذلك في مقدمة لطردها من الامم المتحدة كعضو مراقب، وتصفية وجودها السياسي والدبلوماسي ومطاردة اعضائها وقياداتها.. تحت طائلة القانون الدولي للنظام العالمي الجديد.

وهذه الركيزة التي يشكل انجازها اهم واخطر اهداف الصهيونية والامبرياليين، لأنها تهدم السد المنيع والعقبة الكأداء، التي تقف في وجه المخططات الصهيونية الامبريالية التوسعية. ولا بد لنا ان نتذكر كل الخطوات السابقة والراهنة التي خطتها الولايات المتحدة تجاه تحقيق هذا الهدف منذ صدور التقرير

الصهيوني الامبريالي "البناء من اجل السلام".. لقد اقامت الولايات المتحدة حوارا شكليا مع المنظمة، بعد ان انتزعت الشروط التي وضعها كيسنجر لسد الطريق امام اي دور سياسي مستقبلي للمنظمة. ثم جاء قطع الادارة الامريكية للحوار الشكلي تحت شعار عدم تخلي المنظمة عن الارهاب، وعدم ادانتها لعملية الشاطئ البطولية التي قامت بها جبهة التحرير الفلسطينية. هنا يكمن جوهر النظرة الامريكية.. المنظمة تساوي الا رهاب.. وجاءت مؤامرة حفر الباطن.. ووقفت المنظمة حيث يجب ان تقف في وجه الغزو الامبريالي الصهيوني للامة العربية.. فأكد الامريكان تصنيفها بأنها مع العدوان.. ولهذا جاءت خطة ما يسمى بالسلام.. دون اشارة لأي دور للمنظمة.. صحيح ان الامريكان يدركون جيدا الدور الحقيقي للمنظمة.. ويرسلون رسائل تطمينية.. ولكن رسائلهم التطمينية للصهاينة الا سرائيليين، وممارساتهم العملية تؤكد انهم لا يزالون مستمرين في مخططهم الهادف إلى تحقيق ركيزة ادانة المنظمة بالارهاب كمقدمة لتصفيتها.

وقد جاءت لحظة المحك الحقيقي عند الدعوة للمؤتمر المتعدد الاطراف، الذي هو الشكل الذي كانت المنظمة والاتحاد السوفيتي يناديان به باعتباره الاساس الذي منه تنطلق المفاوضات الثنائية. وان المنظمة يجب ان تكون طرفا اساسيا على قدم المساواة مع الاطراف الاخرى.

ولكن المنظمة كانت مستثناة من الدعوة.. وعلى الرغم من انعقاد المؤتمر في موسكو، فإن روسيا التي ورثت الاتحاد السوفيتي في المشاركة كراعي ثان لعملية السلام، لم تدفع بإتجاه حضور المنظمة كطرف اساسي، مما يوحي ان خط التصفية للمنظمة، قد يتجاوز الدوائر الامبريالية والصهيونية.

ومن يدقق في رسالة الدعوة إلى مؤتمر مدريد ورسائل التطمينات، التي ارسلت إلى الاطراف المدعوة إلى المؤتمر، يلاحظ بوضوح مخطط الابعاد للمنظمة تمهيدا لتصفية وجودها.

لقد فرضت شروط مؤتمر مدريد على الا مة العربية بأسرها، وليس على الشعب الفلسطيني فقط، وبنفس درجة الاجحاف الذي يفرض فيه مجلس الا من قراراته الظالمة ضد شعب العراق الصامد الشجاع.

وحيث ان المنظمة تشكل الهوية الوطنية المستقلة للشعب الفلسطيني، النقيض التاريخي والشرعي للوجود الصهيوني على ارض فلسطين، فإن تصفية المنظمة هي تصفية لما تمثله من معنى لاستقلال وطني على طريق ازالة الكيان الصهيوني، تمهيداً لتحقيق الوحدة العربية الشاملة. وحين يصر الكيان الصهيوني على استبدال المنظمة ومشروعها بمشروع الحكم الذاتي، انما يهدف إلى تدمير السد الذي يحول بينه وبين السيطرة على الامة العربية وفرض العصر الصهيوني عليها.

أما الركيزة الثالثة.. وهي ما تحاول امريكا تحقيقها عبر المفاوضات المتعددة الاطراف، فيه تحقيق تطبيع العلاقات بين الكيان الصهيوني والانظمة العربية جميعها. بما فيها البعيدة عن ساحة الصراع، سواء دول الخليج او دول المغرب العربي. ونلا حظ في المرحلة الراهنة الحملة الشرسة، التي تقودها الولايات المتحدة ضد المقاطعة العربية للكيان الصهيوني وتغييرها وكأنها جريمة العصر.

وتحاول امريكا في مخططها التصفوي انتزاع الموافقة العربية الرسمية على استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية من عملية السلام، والتصرف على اساس انها غير موجودة ولا تمثل الشعب الفلسطيني. وتدفع امريكا بإتجاه اهداف التطبيع في ظل تغييب المنظمة، ليكون الموقف العربي ليس فقط اعترافا

بالصهيونية كحركة تحرر وطني للشعب اليهودي، وانما استنكارا للموقف النضالي والجهادي لمنظمة التحرير الفلسطينية وادانة لفكرة وجودها.

أما الركيزة الرابعة.. فإنها تتلخص بأن يقوم الكيان الصهيوني، ومن منطلق دوره في تكريس التجزئة في الوطن العربي، بتكريس علاقات ثنائية مع الاقطار العربية، تقوم على اساس الامن المشترك بين الكيان الصهيوني من جهة، وكل نظام عربي على حدة، من جهة اخرى. ويتكرس مفهوم الامن الاقليمي على حساب الامن القومي، وبهذا يتكرس الكيان الصهيوني سيدا وحاكما للمنطقة، ويصبح مخطط امريكا و"اسرائيل الكبرى" حقيقة واقعة. ويعتمد المخطط الصهيوني الامبريالي لتحقيق هذا الهدف عبر مسارات المفاوضات الثنائية، وخطط تكريس المصالح الاقليمية لكل طرف عربي، والخوض في تفاصيل جزئية لطبيعة العلاقات المستقبلية بين الكيان الصهيوني والقطر العربي المعني، دون اعتبار لطبيعة العلاقات والمصالح المشتركة بين الاطراف العربية.

2. خيارات المواجهة

تنطلق استراتيجية المواجهة للتحديات السبع الراهنة، من ثوابت استراتيجية ومتغيرات تكتيكية نتيجة لاحتمالات التبديل والتغيير في شكل النظام العالمي الجديد في مراحل تكوينه وتشكيله. ومن المتوقع ان طبيعة تعدد الاقطاب ستحول دون هيمنة امريكا.

ومن اهم الثوابت التي يجب التمسك بها، المفهوم الحقوقي للامن حق الامة في ان تصون امنها وتحافظ على وجودها وتطورها. ويعبر عن هذا المفهوم، الحق في اقامة دولة مستقلة او وحدة او اتحاد. ويعني الامن القومي، بالمفهوم الحقوقي صيانة حق الامم في تقرير مصيرها، وحقها في اختيار ما يناسبها ويلائمها من نظم سياسية واجتماعية، والتمتع بالتواصل التاريخي والمستقبلي مع هويتها الثقافية والحضارية.

والمعالجة السياسية لمفهوم الامن القومي تقوم بطبيعتها على الاستجابة المتغيرة للامة، وتقوم بإنشاء المؤسسات ووضع الآليات القادرة على حل مشكلات العلاقات المتغيرة بين الشعوب والجماعات، داخل المناطق الاقليمية، لنفس الدولة او فيما بين الدول.

وحيث ان الامة العربية تتواصل جغرافيا وتاريخيا وثقافيا مع دول جوار جغرافي، بشكل جعل الترسيم التعسفي للحدود الجغرافية وللتوزيعات السكانية مسارا لتناقضات قومية وسياسية. فقد كان ذلك سببا في تهديدات متصلة او متقطعة. ان تعيين المضمون الاجرائي لمفهوم الامن القومي العربي في المرحلة الراهنة، يفترض امكانية الاتفاق على تقدير موضوعي لخصائص وظروف التطور الراهن، من مشروع الاستقلال، ولحالة وطبيعة موازين القوى، فيما بين المواقع الحالية لهذا المشروع من ناحية، ومصادر التهديد والظلم الواقعة على هذا المشروع، من ناحية اخرى.

وعلى الرغم من الثراء الروحي والحضاري والثقافي للامة العربية، وعلى الرغم من المقاومة العنيدة التي ظهرت، ومحاولات الاستنهاض المتكررة في اتجاه الصحوة القومية العملاقة، الا ان مشروع الاستقلال العربي حتى الان لا يزال يعاني من انكماش فوقي.. وتلاشي واضح في بنيته العامة. وتظهر المرحلة الراهنة انقلابا في موازين القوى الامبريالية والعالمية والاقليمية (امريكا واسرائيل). وقد اصبحت هذه الموازين تسمح للقوى العادية بالاستفراد بالمنطقة العربية وفرض الشروط المجحفة والمذلة عليها، لتمكين

المعدو الصهيوني من تحقيق احلا مه التوسعية، وفرض هيمنته على النظام المشرق اوسطي الجديد، كامتداد منطقي لفرض امريكا هيمنتها على النظام العالمي الجديد، الذي كان يخطط له بوش.

وللمواجهة، لا بد من دراسة الصيغة الامثل القادرة على الخروج من المأزق، ليس فقط بتقليل الخسائر في المرحلة الراهنة، ولكن بفتح آفاق النهوض القومي الشامل في اقرب فرصة ممكنة، ليتسنى لامتنا العربية ان تتسلح بتراثها الروحي والمادي والحضاري، وتنطلق في القرن القادم عملاقاً من عمالقة العصر الجديد، وركنا رئيسيا من اركان نظام عالمي جديد، متعدد الاقطاب، يحقق التوازن بين الحقوق والواجبات على مستوى الامم والشعوب والدول والمنظمات الاقليمية والعالمية.

وتنطلق استراتيجية المواجهة في الخيارات الاربعة التالية:

خيار المواجهة الشاملة، (خيار الصلابة المبدئية والصلابة التكتيكية).

خيار المواجهة الاستراتيجية والانسحاب التكتيكي، (خيار الصلابة المبدئية والمرونة التكتيكية).

خيار المواجهة التكتيكية والانسحاب الاستراتيجي، (خيار الصلابة التكتيكية والمرونة المبدئية).

خيار الانسحاب الشامل، (خيار المرونة المبدئية والمرونة التكتيكية).

أ. خيار المواجهة الشاملة

يعبر عن هذا الخيار مفهوم الجهاد الاسلامي الشامل والثورة المستمرة، ضد ما يمكن ان يسمى الغزوة الصليبية الجديدة، والمتمثلة بالكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية، وبالانظمة العربية التي تهادن الوجود الصهيوني.. وتجد هذه الاستراتيجية الراديكالية مجال صحتها في حال بزوغ عالم جديد من الفوضى.. عالم اللانظام وهو احد الخيارات المحتملة بالنسبة لتطورات تشكيل النظام العالمي الجديد خاصة، اذا ما دبت هذه الفوضى وصراعاتها الاثنية والدينية والقومية داخل الولايات المتحدة نفسها. ففي حالة عجز الرئيس كلينتون عن احداث توازن اقتصادي داخلي وخارجي، فإن امكانية ان تواجه الولايات المتحدة مسيرة الحرب الاهلية والتفكك، يظل قائما. وتصبح صورة كلينتون قريبة من صورة غورباتشوف.

ب. خيار المواجهة الاستراتيجية والانسحاب التكتيكي

وينطلق هذا الخيار من تحديد التناقض المبدئي والرئيسي بين الامة العربية وعدوها الكيان الصهيوني.

ويقتضي هذا الخيار التمرس والتمسك بمبدأ القتال المستمر والحرب الشعبية الطويلة الامد والكفاح المسلح ضد الوجود الصهيوني وعدم التنازل عن اي حق من حقوق الشعب الفلسطيني والامة العربية. ويتطلب ذلك حشد كافة طاقات الامة العربية والاسلامية من اجل المعركة الحاسمة ضد وجود هذا الكيان

الصهيوني. ولتحقيق هذا الموقف الاستراتيجي الصلب، يجب العمل على تجميد التناقضات الثانوية داخل صفوف الامة العربية والاسلامية، بحيث لا خلافات على حدود بين الاقطار العربية او بينها وبين جيرانها، ولا نزاعات خلافية على اسس طائفية او عرقية او دينية او سياسية. وهذا يتطلب المزيد من افساح المجال للحياة الديمقراطية التي تنطلق موجهة ضد العدو الصهيوني. ويجب ان تتواجه كل الطاقات والقدرات لدعم طليعة الامة العربية في معركة المواجهة مع العدو الصهيوني وهو شعبنا الفلسطيني وانتفاضته العملاقة. بحيث يشكل هذا الدعم وسيلة لتغيير موازين القوى، تستطيع ان تفرض على العدو الصهيوني التراجع الاستراتيجي عن تطلعاته التوسعية تمهيدا، لفرض حالة التراجع النهائي عليه، واقامة الدولة المستقلة الديمقراطية المستقلة، التي ستحقق بإقامتها الوحدة العربية الشاملة. وذلك بزوال الكيان الصهيوني، التحدي الرئيسي للامن القومي العربي، والسد الامبريالي المزروع في قلب الامة العربية، بهدف منع تحقيق وحدتها وحريتها واستقلالها ويفترض هذا الخيار تجاوز الازمة القومية التي نتجت عن حرب الخليج. والسمو فوق كل الجراح، التي خلفتها من اجل حشد كل الجهود ضد العدو الصهيوني. وهنا لا بد من احياء صيغة التضامن العربي، انطلاقا من موقف عربي موحد بفك الحصار عن العراق الصامد وعن ليبيا. ويتحدى القرارات الجائرة لمجلس الامن. ويبدأ في رأب الصدع عبر خطوات عملية في مجالات الامن القومي، مهدد بالخطر من التحديات السبع السالفة الذكر. فحين نتجاوز خمسة من هذه التحديات بتجميدها، تصبح مواجهتنا المشتركة للتحدي الصهيوني، ولما يسمى بمشروع السلام الامريكي مركزة وقادرة، ليس فقط على صيانة الامن القومي الراهن، ولكن على ضمان المستقبل القومي المشرق.

ج. خيار المواجهة التكتيكية والانسحاب الاستراتيجي

يشمل هذا الخيار موقفين يرتبط كل منهما بطبيعة مفهوم المواجهة ومدى الانسحاب، ويمثل الموقف الاول لهذا الخيار، الانسحاب الاستراتيجي المؤقت، وتجميد التناقض الرئيسي مع العدو الصهيوني والتوجه نحو قضايا الامة العربية ومشاكلها. والعمل على حل التناقضات الثانوية، بما يكفل تقوية البنية النضالية، وتهيئة الامة لصحوة قومية شاملة، تكون فيها قادرة على المواجهة الاستراتيجية بشكل يضمن النصر. ويتطلب هذا الموقف، الاستمرار في التمسك بالثوابت القومية خلال مرحلة الانسحاب الاستراتيجي.

أما الموقف الثاني، وهو الموقف الذي ينسحب كليا من المواجهة الاستراتيجية ثم يعمل عبر المواجهة التكتيكية لتجسيد ما يخدم ويبرر الانسحاب الاستراتيجي.

وتعبر اتفاقية كامب ديفيد عن هذا الموقف، فقد تمت عبره المصالحة الكبرى مع العدو الاستراتيجي. وحل الخلاف والصراع بين حكومة مصر والامة العربية. وعلى الرغم من رفض الشعب المصري لهذه الاتفاقيات وقتله للسادات الذي وقّعها. الا ان هذا الخيار وجد طريقه بالاستمرار في التجذر، حتى اصبح خيارا شاملا في هذه المرحلة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه. وبعد ان احدثت حرب الخليج شرخا غائرا في جسد الامة العربية واصبحت مصر تقود الجامعة العربية. ويسلم هذا الخيار بوجود الكيان الصهيوني في المنطقة. وبأن التصدي له ومحاربته لن توصل إلى اي نتيجة ايجابية، ما دامت امريكا هي سيدة العالم، وما دام هذا الكيان يشكل امتدادا استراتيجيا لمصالح امريكا في المنطقة. وينطلق هذا الموقف من ان التعايش مع الكيان الصهيوني هو الذي سيجعله في النهاية، يذوب في المحيط العربي والاسلامي.

د. خيار الانسحاب الشامل

عند التسليم باستمرارية اختلال موازين القوى استراتيجيا لصالح العدو، يصبح البحث عن تعايش مع صيغة تغلف باسم الواقعية وسياسية الممكن امر واقعيا. والانسحاب الشامل، يعني عدم مواجهة التحديات والتسليم لها والبحث عن مخرج تحت تبريرات مختلفة. ويمكن ان يكون المُعبر الاوضح عن مشروع هذا الخيار، ما طرح مؤخرا في اوساط عديدة تحت عنوان البينلوكس، او الاتحاد الكنفدرالي الثلاثي، بين فلسطين والاردن و"اسرائيل".

وينطلق دعاة هذا الخيار، من ان السلام حالة عقلية مرتكزة على مبادئ، كالتعايش والمساواة في الشرق الاوسط، والاحترام المتبادل بين الاطراف المتنازعة. وان الحل السلمي على الطريق الكنفدرالية السويسرية سيزيل الحاجة لسلاح التدمير الشامل. ويلغي ضرورة وجود جيوش قادرة على تدمير جيوش اخرى مجاورة، من خلال اعتداءات هجومية او دفاعية. وبنزع السلاح، يتم تحويل نفقات التسلح للاستثمارات في المجالات المختلفة، الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، مما يساهم في ازدهار العالم الجديد.

ويقابل دعاة هذا الخيار من الجانب العربي، وتحديدا الفلسطينيين، دعاة الكنفدرالية من الصهاينة وعلى رأسهم اسحاق رابين، الذي اعلن عن امكانية تشكيل كنفدرالية ثلاثية بين "اسرائيل" والاردن مع الفلسطينيين. وهنا يبرز الفرق في النوايا بين مشروع عقلاني انساني يقامر بشعارات العزة والكبرياء الثوري للتوفيق ما بين شرعية "اصحاب الحق" واصرار الذين "استولوا" مع مرور الزمن على "بعض الحق". وبين مشروع اخضاعي، يرى ان الشرعية تنطلق من حق الصهيوني ان يستوطن في اي مكان في ارض "اسرائيل الكبرى". (وهنا تدخل الاردن حسب مشروع جابوتنسكي ضمن المطروح)، وحق العامل الفلسطيني ان يعمل في تل ابيب.

إن موضوع خيارات المواجهة لتحديات الامن العربي بحاجة إلى المزيد من النقاشات.. والحوارات.. للوصول إلى وضع خطة عربية شاملة للمواجهة تحدد الخيار الافضل، وهو في رأينا الخيار الذي يتوجه بكل طاقاته ضد المشروع الامبريالي الصهيوني. ويعمل بكل جهده لتجميع طاقات الامة العربية لهذه المواجهة. انه خيار المواجهة الاستراتيجية بموقف قومي عربي واسلامي موحد.

وانها لثورة حتى النصر

هوامش

1. جورج بوش،2 خطاب امام الجمعية العامة للامم المتحدة. 12 أيلول 1990.
2. جورج بوش،4 خطاب امام الكونغرس.
3. رسالة التطمينات للفلسطينيين،6- (وثيقة).
4. جورج بوش،8 خطاب امام الجمعية العامة للامم المتحدة. 12 أيلول 1991.
5. صخر ابو نزار،10 استراتيجية التوتر الدائم. مجلة الصداقة العدد الاول،11- 1986،12 ص 26.
6. صخر ابو نزار،14 (ندوة القدس مفتاح السلام). المجلد السادس 1992،15 ص 173.
7. ريتشارد ستيفنز،17- الصهيونية قبل الانتداب،18 ص 60.
8. سمير ايوب،20 وثائق اساسية في الصراع العربي الصهيوني. الجزء الاول،21 ص 250.
9. محمد عباس،23 الوجه الآخر،24 ص 122.
10. المصدر السابق،26 ص 237.
11. وليم فوستر،28 دراسة في التاريخ السياسي الامريكي،29 ص 628.
12. وليم مكنيل،31 امريكا-بريطانيا-روسيا. التعاون والتصادم،32 ص 628.
13. هاري ترومان،34 الاوراق العامة لرؤساء الولايات المتحدة،35 ص 549.
14. كولن باول وبيتر مولي،37 من الحرب الباردة إلى الوكالة. ترجمة صادق عودة،38 ص 127.
15. مجلة فورن افيرز،40- يناير 1957،41 ص 32.
16. كولن باول،43 مصدر سابق.
17. س. بلاكيت،45- التأثيرات العسكرية والسياسية للطاقة الذرية،46 ص 127.
18. مجلة "لوك"،48- 24 نوفمبر 1959.
19. كولن باول،50 مصدر سابق،51 ص 221.
20. فؤاد مرسي،53 الرأسمالية تجدد نفسها،54 ص 147.
21. المصدر السابق،56 ص 20.
22. المصدر السابق،58 ص 22.
23. صخر ابو نزار،60 حرب النجوم. مصدر سابق،61 ص 29،62- 30،63- 31.

24. عبد المنعم سعيد: العرب والنظام العالمي الجديد. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية-الاهرام،65 كراسات ودراسات استراتيجية،66 رقم 3،67 أيار 1991.

25. باري بوزان،69 السياسة الواقعية في العالم الجديد،70 مجلة شؤون دولية،71 عدد 3 يوليو 1991.

26. باتريك تيلر،73- الهيرالدتريبيون 9-3-1992.

27. باتريك تيلر،75 نفس المصدر.

28. تشارلز كروتامر،77- نيويورك تايمز،78- 29-7-1991.

29. تشارلز كروتامر،80 واشنطن بوست،81- 3-3-1992.

30. باتريك بيوكانان،83 مجلة ناشيونال انترست،84 خريف 1990،85 ص70.

31. جوزيف ناي،87 واشنطن بوست،88- 22 يناير 1991.

32. جيمس شليسنجر،90 مجلة السياسة الخارجية،91- شتاء 1991،92 ص 5.

33. جيمس شليسنجر،94- السياسة الدولية،95 عدد 10،96 ص 13.

34. محمد حسنين هيكل،98 حرب الخليج،99 ص 165.